ملخص البحث:

جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وسبعة محاور، وخاتمة، وفهارس.

١ـ المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والخطة التي قام عليها البحث، والمنهج المتبع في الدراسة.

٢ـ التمهيد: ويشتمل على أمرين: الأول: التعريف بالمعلقات. الثاني: أثر التعليل في توكيد المعنى.

٣ـ المحور الأول: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل باللام.

٤ـ المحور الثاني: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالفاء.

٥ـ المحور الثالث: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بـ(إذ).

٦ـ المحور الرابع: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بـ(كي).

٧ـ المحور الخامس: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالاستفهام.

٨ـ المحور السادس: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالمصدر.

٩ـ خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج الجواب عن سؤال مقدر.

١٠ـ الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

١١ـ الفهارس: (فهرس المراجع ـ فهرس الموضوعات).

الكلمات المفتاحية: خصائص ـ بناء ـ الجملة ـ التعليل ـ المعلقات.

Abstract:
، seven axes، Preface، The research was organized into an Introduction Conclusion & indexes.
the reasons ،١- ***Introduction***: I discussed the importance of the research and the plan and the methodology of the research.،why I picked that title
٢-***Preface***: I addressed two points:
١st: The definition of the "***Odes / Mu'allaqat***".
٢nd: The effect of ***Causality*** to giving emphasis to meanings.
٣- ***Axis I***: The characteristics of construction of the sentence that is considered a *Sentence of Causality* because of the – prefixed particle of purpose لـ ***lām***.
٤- Axis II: : The characteristics of construction of the sentence that is considered *a Sentence of Causality* because of the – prefixed particle of purpose فـ Fāa.
٥- ***Axis III***: The characteristics of construction of the sentence that is considered a *Sentence of Causality* because it was accompanied by the particle ***"iz`"*** إذْ that expresses causality.

٦: ***Axis IV***: : The characteristics of construction of the sentence that is considered a *Sentence of Causality* because it was accompanied by the particle "***KAYY***" كَي.

٧- ***Axis V***: The characteristics of construction of the sentence that is considered a *Sentence of Causality*، because it was accompanied by interrogation style that expresses demand and Causality is understood.
٨- ***Axis VI*** : The characteristics of construction of the sentence that is considered a *Sentence of Causality*، because it was accompanied by *the clear infinitive* (consist of (أنْ) and the verb).

٩- ***Axis VII***: The characteristics of construction of the sentence that is considered a *Sentence of Causality*، because the sentence implies an answer to an estimated and unspoken question.

١٠-***Conclusion***: Includes the most important results and recommendations of the research.

٩ – ***Indexes***: (Index of references and -Index for topics).

Keywords: (Characteristics – Construction –Sentence – Causality –*odes / Mu'allaqat*).

" المقدمة "

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فالشعر الجاهلي عامة، وشعر المعلقات منه خاصة مازال فيه من السخاء والعطاء ما يمد كل صاحب نظر ثاقب، وفكر أصيل، ويلهم كل ذي قدرة نافذة على الاستخراج والاستنباط ؛ فما زال وراءه من الأسرار والنكات واللطائف ما هو أعمق وأخفى، وأبعد نجدا في الصناعة وغورا من الدلالات الظاهرة، والمعاني المباشرة، وكلما أدرت النظر فيه، وأعملت الفكر في تأمله كلما تكشف لك عن وجه من وجوه العظمة، وضرب من ضروب الجدة والحيوية الكائنة فيه، المهم أن نحسن كيف نتعامل معه، وأن نقرأه قراءة جيدة، وأن نمتلك الأداة المثلى، والملكة النافذة التي نستطيع من خلالها أن نتذوقه، وأن نفتق أكمامه، ونستخرج درره وجواهره ؛ فإن الكلام العالي لا ينقطع عطاؤه، ولا ينضب معينه .

وهذا البحث الذي جاء بعنوان : " خصائص بناء الجملة التعليلية في شعر المعلقات " يمثل مظهرا من مظاهر هذا الثراء والتنوع، وضربا من ضروب الجدة والطرافة الكائنة في هذا الشعر ؛ إذ يعكف على دراسة هذا النوع من التراكيب الذي كثرت مواضعه في شعر المعلقات كثرة لافتة، وتنوعت صوره ووسائله تنوعا ظاهرا، حتى أضحى سمة بارزة فيه ؛ فجاء التعليل صراحة في هذا الشعر من طريق دخول بعض أدوات التعليل المعروفة، كاللام، والفاء، وإذ، وكي، والمصدر المنصوب، والواو، وبعض أدوات الاستفهام على الجملة المعلل بها، وجاء التعليل فيه ضمنا عن طريق تنزل الجملة المعللة منزلة الجواب عن سؤال أثارته الجملة المعلة .

كما تنوعت صورة الجملة التعليلية نفسها ما بين اسمية وفعلية، وخبرية وإنشائية، ومؤكدة وغير مؤكدة، وهذا وذاك قد أضفى على هذا النوع من التراكيب ثراء واسعا في الدلالة وعمقا في الإيحاء، وتنوعا في الخصائص والسمات، ورحابة في الأسرار والنكات .

وقد دفعني إلى دراسة هذا الموضوع الأسباب الآتية:

أولا : بكارة الموضوع وجدته، فلا أعلم بحثا بلاغيا قبل ذلك توفر على تناول هذه الظاهرة بالدراسة والتحليل .

ثانيا: كثرة وسائل التعليل وتنوع أساليبه وصوره في شعر المعلقات، وهذا لا يجئ في الشعر الجاهلي كيفما اتفق، ولا يرد هكذا عفو الخاطر، بل قصد إليه قصدا ؛ لتحقيق غايات وأهداف، ومعان وأغراض .

ثالثا : محاولة التعرف على بعض طرائق الجاهليين من أصحاب المعلقات في بناء تراكيبهم، وصياغة معانيهم من خلال توظيف هذه القدرات والطاقات الهائلة الكامنة في اللغة توظيفا رائعا، يقوم على مراعاة البعد الفني، وينهض بتلبية حاجات المعنى ومتطلباته، والوفاء بتصوير المقام ومقتضياته .

رابعا : محاولة الوقوف – أيضا – على بعض مناهج الجاهليين ووسائلهم في إحكام صنعتهم الفنية، وتبين مدى قدرتهم على تحقيق التماسك النصي والبنيوي لمعانيهم وأغراضهم ؛ من خلال انتظامها وتسلسلها تسلسلا منطقيا، يقوم على الإقناع والتأثير، وترتيب النتائج والنهايات على المقدمات والمعطيات .

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وثمانية محاور، وخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات .

١- المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وذكرت الأسباب التي دفعتني إلى دراسته، وأودعتها الخطة التي يقوم عليها البحث، والمنهج المتبع في الدراسة .

٢- التمهيد : ويشتمل على أمرين : الأول : التعريف بالمعلقات
الثاني : مفهوم التعليل وأثره في تقرير المعنى .

٣- المحور الأول: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل باللام.

٤- المحور الثاني: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالفاء

٥- المحور الثالث: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بـ"إذ"

٦- المحور الرابع: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بـ"كي"

٧- المحور الخامس: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالمصدر المنصوب .

٨- المحور السادس: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالواو.

٩- المحور السابع: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالاستفهام .

١٠- المحور الثامن : خصائص بناء الجملة التعليلية التي خرجت مخرج الجواب عن سؤال مقدر .

١١- الخاتمة : وفيها أهم نتائج البحث

١٢- ثبت المصادر والمراجع، وثبت الموضوعات .

وقد اقتضت طبيعة هذا الموضوع أن يكون المنهج المتبع في الدراسة هو المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم – في الغالب – على حصر مواضع هذا النوع من التراكيب في شعر المعلقات واستقصائها، ثم تصنيفها وتبويبها على حسب المحاور المذكورة في خطة البحث، ثم استخلاص خصائصها وسماتها، وتحليلها تحليلا بلاغيا، يقوم على تعليلها، واستكناه أسرارها، واستبطان خوافيها ودقائقها ؛ لاستخراج دررها وجواهرها، والتوفيق والمواءمة بينها وبين القرائن سياقية كانت أم مقامية، وذلك على وجه ينبئ عن مدى وفائها بالمعنى والغرض، ويصور غاية موافقتها للمواقف والمقامات، ومطابقتها لمقتضيات الأحوال .

والله أسأل أن يكون من وراء القصد، وأن يعصمني من الزلل، وأن يرزقني السداد والتوفيق، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

د/ السيد أحمد أحمد موسى
أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية
الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

" التمهيد "

"أولا" : "التعريف بالمعلقات"

المعلقات سبعا كانت أم عشرا هي من عيون الشعر العربي وأفضله، وأحسنه وأجوده ؛ إذ تمثل اللغة العربية والشعر وهما في ذروة نضجهما وكمالهما، وفي طور تمامهما واستوائهما، كما تعطينا صورة حية وقيمة من حياة العرب الاجتماعية والسياسية في العصر الجاهلي، وشعراؤها كذلك – هم أفضل شعراء الجاهلية، وأعلاهم كعبا في فن الشعر .

وقد تعددت أسماء المعلقات في كتب اللغة والأدب، فسميت بالمعلقات، وسميت بالمذهبات، وسميت بالسموط، وسميت بالمشهورات، وسميت بالسبعيات[١]، لكن التسمية التي غلبت على هذه القصائد، واشتهرت في المحافل الأدبية والنقدية هي تسميتها بالمعلقات، وكان أول من اختارها، وأطلق عليها هذا الاسم هو حماد الراوية .

وقد اختلف علماء اللغة والأدب في سبب تسميتها بالمعلقات ؛ فمنهم من ذهب إلى أن سبب تسميتها بذلك يرجع إلى أن العرب علقوا هذه القصائد على أركان الكعبة وأستارها، وكانوا يفعلون ذلك إذا استحسنوا قصيدة شاعر من الشعراء[٢].

ومنهم من ذهب إلى أن سبب هذه التسمية يرجع إلى أن الملوك كانوا إذا استجادوا قصيدة شاعر من الشعراء واستحسنوها، قالوا : علقوا لنا هذه ؛ لتكون في خزانته[٣].

ومنهم من ذهب إلى أن سبب هذه التسمية هو علوقها بأذهان الناس صغارهم وكبارهم، ومرؤوسيهم ورؤسائهم ؛ وذلك لشدة الاعتناء بها؛ لجودتها وحسنها، وتفوقها على غيرها من الشعر.

ومع وجاهة هذه الأسباب وشهرتها إلا أن بعض العلماء شكك فيها، وذكر أن الأمر على خلاف ذلك، كأبي جعفر النحاس، قال : " ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة[٤].

---

(١) ينظر إعجاز القرآن للباقلاني ص٢٠١ ، تعليق : د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، دار الجيل ، بيروت . كما ينظر العمدة لابن رشيق القيرواني ٩٦/١ ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الخامسة ١٩٨١م ، دار الجيل ، بيروت .

(٢) ينظر كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ١١٨/٦ ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، دار الكتب العليمة ، بيروت . كما ينظر مقدمة ابن خلدون ١١٧٦/٣-١١٧٧ ، تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ٢٠٠٦م .

(٣) ينظر العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق ٩٦/١ .

(٤) معجم الأدباء : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي ٢٠٤/٣-٢٠٥ ، تحقيق: إحسان عباس ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت .

بل إن هناك من العلماء الفضلاء أرباب اللغة والأدب من لم يؤثر عنهم تسميتها بالمعلقات أصلا، ولم يرد هذا في كتبهم، كالجاحظ والمبرد، كما أن الشراح المشهورين لهذه القصائد لم يذكروا في شروحهم أنها معلقات، كابن الأنباري، والزوزني، والخطيب التبريزي(١).

وكما لم يتفق العلماء على سبب تسمية هذه القصائد بالمعلقات لم يتفقوا – أيضا – على عددها، ولا على أصحابها ؛ فمنهم من عدها سبعا، وهذا هو الأشهر، وهي معلقة امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، وعمرو بن كلثوم، ولبيد بن ربيعة، وعنترة بن شداد، والحارث بن حلزة، وذلك في أكثر الروايات وأشهرها، لكن المفضل الضبي وضع مكان عنترة والحارث النابغة والأعشى(٢) .

ومنهم من عدها ثمانيا، وأضاف إلى هذه السبع الأول قصيدة النابغة الذبياني، وزاد بعضهم على هذه الثماني قصيدة الأعشى ميمون، وقصيدة عبيد بن الأبرص ؛ ليصل العدد إلى عشر معلقات، واختار هذا التوجه الخطيب التبريزي، ووضع عليه شرحه المسمى : شرح القصائد العشر، وقد رضي البحث هذه الوجهة واختارها، وسار عليها في دراسة الموضوع ؛ لوجاهتها ؛ لأنها جمعت – من جهة – بين جميع الآراء المطروحة في هذه القضية ووفقت بينها، ولقوة القصائد الثلاث الأخر المضافة إلى القصائد السبع الأول من جهة أخرى .

ومع اختلاف العلماء حول عدد المعلقات، وحول أصحابها إلا أنهم اتفقوا جميعا على أنها أجود شعر العرب في الجاهلية وأفضله، وأقواه سبكا، وأوفاه معنى، وأنها تمثل طور النضج والكمال للشعر العربي عامة، والجاهلي منه خاصة ؛ ولذلك يقول ابن عبد ربه في العقد الفريد : " لقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلقتها بين أستار الكعبة، فمنه يقال : مذهبة امرئ القيس، ومذهبة زهير، والمذهبات السبع، وقد يقال لها المعلقات(٣) ".

ويقول ابن رشيق: " وكانت المعلقات تسمى المذهبات ؛ وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب، وعلقت على الكعبة، فلذلك يقال: مذهبة فلان ؛ إذا كانت أجود شعره، ذكر ذلك غير واحد من العلماء"(٤) .

وقال البغدادي في الخزانة : " ومعنى المعلقة أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به، ولا ينشده أحد، حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه

(١) ينظر مقدمة المحقق لشرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص١٣ ، الطبعة السابعة ٢٠١٧م ، دار المعارف ، مصر .

(٢) ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٤ ، تحقيق : محمد إبراهيم سليم ، دار الطلائع ٢٠١٤م .

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ١١٨/٦ .

(٤) العمدة لابن رشيق القيرواني ٩٦/١ .

على أندية قريش، فإن استحسنوه روى، وكان فخرا لقائله، وعلق على ركن من أركان الكعبة، حتى ينظر إليه، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به"[١]، فهذه الآراء كلها تجتمع على تفضيل هذه القصائد على غيرها من شعر العرب، وأن ذلك نابع من استحسان العرب إياها، واستجادتهم لها، ولذلك كتبوها بماء الذهب، وعلقوها على أركان الكعبة .

(١) خزانة الأدب ولب لسان العرب للبغدادي ١/١٢٥-١٢٦ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة ١٩٩٧م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

" ثانيا "

" مفهوم التعليل وأثره في تقرير المعنى "

التعليل في اللغة : تفعيل، من قولهم : علل الماشية، إذا سقاها مرة بعد مرة، والعلة المرض، من قولهم : عل، يعل، واعتل، أي : مرض، فهو عليل، وإنما سمي المرض علة ؛ لأنه سبب في تغير حال الإنسان، وفساد صحته، وهذا علة لهذا، أي : سبب، وعاللت هذا، إذا جعلت له علة وسببا(١).

أما التعليل في اصطلاح أهل العلم فيختلف تعريفه عند الفلاسفة والمتكلمين عنه عند الأصوليين واللغويين؛ ومرد ذلك إلى اختلاف الوسائل والغايات، والنتائج والمعطيات عند أهل كل فن من هذه الفنون .

فالعلة الفلسفية والكلامية في طبيعتها غائية، تكشف عن تلازم عقلي بينها وبين المعلول ؛ إذ إن العلاقة بينهما علاقة معية ومصاحبة في الوجود، بمعنى: أنهما يوجدان معا، والعلة الفقهية تعبدية، تكشف عن الصالح العام، أو المصالح المرسلة، وتسبق المعلول في الوجود ؛ بحيث تنشأ العلة الداعية إلى الحكم، فينشأ الحكم بعد ذلك، أما العلة اللغوية فهي حسية تكشف عن نتيجة الاستقراء، وقد تكون ضرورية في بعض الحالات، وتلحق معلولها في الوجود، بمعنى أن العربي يتكلم، والاستقراء يتم أولا، ثم يأتي اللغوي بعد ذلك ليشرح العلل(٢).

وأقرب تعريف للتعليل هو ما ذكره أحد الباحثين وهو يتناول أسلوب التعليل في اللغة العربية، حيث ذكر أن التعليل : هو تبيين الغرض من إيقاع الفعل، أو سبب وقوعه(٣) ؛ وإنما كان هذا أقرب التعريفات ؛ لوفائه بالغرض، ولجمعه بين الاتجاهات المذكورة .

وبالنظر والتأمل في التعريف السابق نجد أن التعليل ينقسم إلى نوعين: النوع الأول: التعليل بالغرض، وفيه يعلل الحكم بذكر الأمر المراد من إيقاعه، والباعث عليه، ويسمى – أيضا – التعليل بالغاية أو النتيجة، ويكون التعليل للحدث في هذا النوع بمقدمات ومعطيات لاحقة له زمنا(٤).

والنوع الثاني : التعليل بالسبب، وفيه يعلل الفعل بذكر المؤثر فيه، والسبب له، وهو عكس

---

(١) ينظر كتاب الطراز المتضمن لعلوم أسرار البلاغة وحقائق الإعجاز للعلوي اليمني ص٤٦٥، تحقيق : محمد عبد السلام شاهين ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، دار الكتب العلمية ، بيروت. ولسان العرب لجمال الدين بن منظور علل ٣٠٧٨/٤ ، وما بعدها ، دار المعارف، مصر ، بدون تاريخ .

(٢) ينظر الأصول . دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب . د/ تمام حسان ص١٨٠ ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٨م .

(٣) أسلوب التعليل في اللغة العربية ، رسالة ماجستير للباحث : أحمد خضير عباس ص١٧ ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ١٩٩٩م .

(٤) نفس المرجع ص١٧-١٨ .

النوع الأول ؛ يكون التعليل للحدث فيه بمعطيات سابقة[١].

أما أثر التعليل ودوره في تقرير المعنى فإن سوق الكلام مساق التعليل يعد من أقوى وسائل تثبيت المعنى وتمكينه في النفس، وترسيخه في الوجدان، ومرد ذلك إلى عدة أسباب :

أولا : أن التعليل يفيد التقرير والأبلغية، فهو نوع من أنواع التأكيد والتثبيت، والاطمئنان بصحة الخبر أو الحكم؛ ولهذا قيل : إن إثبات الشيء معللا آكد من إثباته مجردا عن التعليل، ومن ثم ذهب بعض العلماء إلى أنه أقوى من التأكيد بأسلوب التكرار المجرد[٢].

ثانيا: أن التعليل يغني النفس عن البحث عن السبب، ويجنبها الانشغال بالعجب، فينحصر التأثر والانفعال بالثقة والاطمئنان إلى ما يقال[٣].

ثالثا: أن البحث عن العلة مركوز في فطرة الإنسان وفي جبلته التي خلقه الله عليها ؛ لأنه استقر في أعماقه أن لكل شيء سببا، وأن لكل معلول علة، كما أن لكل فعل فاعلا ومؤثرا، وهذا من أوائل ما يدركه البشر في حياتهم ؛ فمبدأ العلية – إذا – مبدأ عقلي، يجعل الإنسان يتساءل دائما : لماذا ؟ حتى إذا خفي عنه سبب الحدث أو جهله أثار ذلك في نفسه الدهشة والاستغراب، والترقب والتطلع إلى المعرفة، فإذا وقفت النفس عليه بعد هذه الحركة الداخلية الموارة، وبعد هذا التشوق والتطلع، تمكن المعنى في القلب، واستقر في الوجدان، ولهذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب[٤].

رابعا: أن التعليل ينبه العقل، وينشط الذهن، ويوقظ الفكر إلى حكمة الشيء وسببه، والغاية والهدف من وجوده[٥].

خامسا: أن التعليل يمثل البرهان الساطع على صحة الحكم، والحجة الدامغة على صدقه ووجاهته، والدليل المقتضى له في منطقه المستقيم، فيبعث ذلك النفس بحكم ما أثمر فيها من فرط الامتناع بالحكم على الإقبال على الامتثال بهمة ونشاط[٦].

---

(١) المرجع نفسه ص١٧–١٨ .

(٢) ينظر كتاب الطراز للعلوي ص٤٦٥ ، كما ينظر الكليات معجم في الفروق والمصطلحات اللغوية للكفوى ص٢٦٨ ، تحقيق : عدنان درويش – محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، بدون تاريخ .

(٣) ينظر أسلوب التعليل في اللغة العربية . رسالة ماجستير للباحث أحمد خضير عباس ص٢١

(٤) ينظر حاشية الملوي على شرح المكودي على ألفية ابن مالك ص١٢٥–١٢٦ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٥٤م ، وحاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ١٦/٣ ، دار إحياء الكتب العربية ، لعيسى البابي الحلبي وشركائه بمصر ، بدون تاريخ ، كما ينظر كتاب الفلسفة نشأة وتطور . محمد بدر الدين الصادي ص٢٧٨–١٧٩ ، الطبعة الرابعة ١٩٧٣م ، دار الفكر ، بيروت .

(٥) ينظر التعليل في القرآن الكريم . دراسة وتفسيرا .د/ محمد سالم محمد ص٣٧٩ ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، مطبوعات أولاد عتمان ، مصر .

(٦) ينظر المرجع نفسه ص٣٧٩ .

" المحور الأول "

" خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل باللام "

يعد التعليل من أبرز المعاني التي تستعمل فيها اللام المفردة، مع ما اشتهرت به من كثرة المعاني وتنوعها؛ إذ هي كالأصل في هذا المعنى، وغيرها تبع لها فيه(١).

وهي حين تستعمل لهذا الغرض تدخل على الجملة بنوعيها الاسمية والفعلية، كما تدخل على المفرد – أيضا – بكثرة .

ومع كثرة استعمال اللام في هذا المعنى إلا أنها لم تدخل على الجملة بنوعيها في شعر المعلقات إلا في مواضع قليلة، لم يتجاوز العد بها ثمانية، وقد جاءت مفصلة على النحو الآتي:–

ثلاثة في معلقة امرئ القيس :

٢–فَتوضِحَ فَالمِقراةِ لَم يَعفُ رَسمُها لِما نَسَجَتها مِن جَنوبٍ وَشَمأَلِ(٢).

٢٢–وَما ذَرَفَت عَيناكِ إِلّا لِتَضرِبي بِسَهمَيكِ في أَعشارِ قَلبٍ مُقَتَّلِ(٣).

٤٤– وَلَيلٍ كَمَوجِ البَحرِ أَرخى سُدولَهُ عَلَيَّ بِأَنواعِ الهُمومِ لِيَبتَلي(٤).

وموضعان في معلقة زهير :

٢٧– فَلا تَكتُمُنَّ اللهَ ما في صُدورِكُم لِيَخفى وَمَهما يُكتَمِ اللهُ يَعلَمِ

٢٨– يُؤَخَّر فَيوضَع في كِتابٍ فَيُدَّخَر لِيَومِ الحِسابِ أَو يُعَجَّل فَيُنقَمِ (٥).

وموضع واحد في معلقة عنترة :

٦– فَوَقَفتُ فيها ناقَتي وَكَأَنَّها فَدَنٌ لِأَقضِيَ حاجَةَ المُتَلَوِّمِ(٦).

وآخر في معلقة النابغة :

٤١– هذا لأبرأَ من قولٍ قذفتُ بهِ طارتْ نوافِذُهُ حَرًّاعلى كبدِي(٧).

---

(١) ينظر الجني الداني في حروف المعاني للمرادي ص١٠٩–٢٦١ ، تحقيق : د/ فخر الدين قباوة ، أ/ محمد نديم فاضل ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) ديوان امرئ القيس ص٨ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الخامسة ، بدون تاريخ ، دار المعارف مصر .

(٣) المرجع نفسه ص١٣ .

(٤) المرجع السابق ص١٨ .

(٥) ديوان زهير بن أبي سلمى ص١٠٧ ، تحقيق : أ/ علي حسن فاعور ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٦) ديوان عنترة بن شداد ص١٢٢ ، عني بتصحيحه : أمين سعيد ، المطبعة العربية بمصر، بدون تاريخ .

(٧) ينظر شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص٤٢٨ ، تحقيق : الإمام محمد الخضر حسين ، الطبعة الأولى الأولى ٢٠١٣م ، دار الصديق للعلوم ، دمشق .

وثالث في معلقة لبيد :

٦١- باكرتُ حاجتَهَا الدجاجَ بِسُحْرةٍ لِأَعَلَّ منها حِينَ هَبَّ نِيَامُهَا[١].

فإذا جاوزنا هذا الحصر المذكور وانتقلنا منه إلى تأمل هذه المواضع؛ لنرصد خصائص بناء الجملة التعليلية التي دخلت فيها اللام نجد أن أحد أبرز هذه الخصائص هو خروج هذه الجملة – في الغالب – مخرج الفعلية التي كان الفعل المضارع دون غيره هو محور الزمن فيها، فقد جاء في ستة مواضع من أصل ثمانية، بينما دخلت اللام التعليلية على الاسم في موضعين اثنين فقط .

أما المواضع الستة التي دخلت فيها اللام على الفعل المضارع فقد جاء موضعان منها في معلقة امرئ القيس : " لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل– ليبتلي "، وجاء الموضع الثالث في معلقة زهير : " ليخفى "، أما الموضع الرابع فجاء في معلقة لبيد: " لأعل منها حين هب نيامها "، بينما جاء الموضع الخامس والسادس في معلقتي عنترة والنابغة ؛ في قول عنترة: " لأقضى حاجة المتلوم "، وفي قول النابغة : " لأبرأ من قول قذفت به طارت نوافذه حرا على كبدي ".

ودخول اللام على الفعل المضارع في الجملة التعليلية في المواضع السابقة هو الذي يحقق – من وجه – نوعا من توافق دلالات الخصوصيات وتناغمها في نسق الجمل، خصوصية العلة، وخصوصية الفعل المضارع ؛ فخصوصية العلة تتمثل في جانب منها في الغائية وتعلقها– في حصولها – بالمستقبل[٢]، وخصوصية المضارع تتمثل في الدلالة على الاستقبال في الغالب، بخلاف صيغة الزمان الماضي، فإنها تتنافى – بدلالتها على المضي والحصول في الزمن الغابر– مع هذه السمة، ولا تتحقق بها هذه الخصوصية .

وقرينة هذا وتأكيده من طبيعة الدلالة التي تستعمل فيها لام التعليل نفسها ؛ إذ تفيد حين تدخل على الفعل المضارع مجردا من " أن " أن الفعل غير واقع، وأنه مقصود إليه ليقع مستقبلا[٣].

كما يحقق – من وجه آخر – نوعا من المخالفة والمقابلة بين العلة ومعلولها؛ لتمييز كل منهما من الآخر في دلالته وطريقة بنائه ؛ فقد برزت الجملة المعلة في ثوب الزمان الماضي، وإن شئت دليلا على ذلك فراجع المعلول في بيتي امرئ القيس : " وما ذرفت عيناك إلا – أرخى سدوله علي بأنواع الهموم "، وراجعه في بيت لبيد : " باكرت حاجتها الدجاج بسحرة "، وكذلك الشأن في بيت عنترة، وفي أبيات النابغة، تجد المعلول قد برز في صورة الزمان الماضي ؛ للدلالة على تحقق وقوع المعلول، والتأكيد على حصوله سلفا في الزمان الغابر، وأن الشاعر إنما يحكيه واقعا قد

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة ص١١٤ ، تحقيق : حمدو طماس ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م ، دار المعرفة، بيروت.

(٢) ينظر معيار العلم لأبي حامد الغزالي ص٢٥٨ ، ت : د/ سليمان دنيا ، دار المعارف ، مصر ١٩٦١م .

(٣) ينظر معاني النحو ، د/ فاضل صالح السامرائي ٣/٣٥٤ ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ، دار الفكر للطباعة والنشر – عمان – الأردن .

حدث، ويخبر عنه حادثا قد وقع، وبذلك تحصل المخالفة وتتأتي المباينة التي ترتد في نهاية الأمر إلى المعنى تقريرا وتوكيدا، وتثبيتا وتمكينا .

ولم يبرز المعلول في غير هذا اللباس إلا في موضع واحد، جاء في معلقة زهير: " فلا تكتمن الله ما في صدوركم " ؛ لخروجه مخرج الطلب ؛ بالنهي عن الكتمان نصحا وتوجيها وإرشادا، وتعلق الطلب أمرا كان أم نهيا في معناه السابق خاصة بالاستقبال من المسلمات البدهية التي لا تتأتى المماراة أو الجدال حولها، ومن هنا كانت صيغة الطلب االمجزومة هي الملائمة لهذا النسق، المطابقة لهذا المقام .

والذي يتأمل الفعل المضارع في الجمل التعليلية السابقة مرة أخرى يجد أنه قد نصب ب " أن " مضمرة جوازا بعد اللام[١]،وهذا يعني أن الجملة التعليلية في تأويل مصدر مجرور ؛ إذ اللام لا تعمل الجر في الأفعال[٢]، وهذا يمنح الجملة المعلل بها مزيتين بلاغيتين قلما يجتمعان – لتنافيهما – على محل واحد، الأولى : ترجع إلى اعتبار ظاهر الجملة وهيئتها التي هي عليها قبل التأويل، وهي إفادة التجدد والحدوث، ووقوع العلة وتكررها مستقبلا مرة بعد مرة، وحالا بعد حال ؛ فجعل المرأة المذكورة في قول امرئ القيس : " أفاطم مهلا بعض هذا التدلل " قلب الشاعر مقطعا مخرقا فاسدا في قوله : " لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل "، المعلل به بكاؤها في قوله : " وما ذرفت عيناك إلا "[٣].

أو تملكها لقلبه، وذهابها بكله، وفوزها بجميع أعشاره، على أن الأعشار جمع عشر، والمراد أعشار الجزور، إذا كانت تقسم على عشرة أنصباء، فأفاد بذلك أنها ذهبت بجميع قلبه[٤]، فهذا كله دأبها الذي تقصد إليه، ولا تنفك عنه مرة بعد مرة، وهذا في حديث الغزل أدخل، وبه أليق وأوفق ؛ لدلالته – من وجه – على فرط دلها ودلالها، وقوة سحر عيونها، وشدة فتك لحاظها، وعمق أثرها وفعلها في قلبه .

---

(١) وهذا هو مذهب جمهور النحويين ، ومن العلماء من ذهب إلى أن اللام ناصبة للفعل المضارع بنفسها أصالة، وهذا مذهب الكوفيين، ومنهم من ذهب إلى أنها ناصبة بنفسها نيابة عن " أن " وذهب السيرافي وابن كيسان إلى أن الفعل المضارع بعد اللام منصوب " بكي " المصدرية، وليس بـ" أن " ، ينظر الكتاب لسيبويه ٦/٣ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، كما ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٢٨/٧، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المصري ٢٠/١ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ١٩٨٧م، كما ينظر همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي ٣٧٧/٢٠ ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، المكتبة التوفيقية ، مصر ، بدون تاريخ .

(٢) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ١٩/٧.

(٣) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الآنباري ص٤٨ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الطبعة السابعة ٢٠١٦م ، دار المعارف ، مصر .

(٤) ينظر المرجع السابق ص٤٨ ، كما ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٢٣ ، تحقيق : محمد إبراهيم سليم ، دار الطلائع ٢٠١٤م.

ونذائه – من وجه آخر – على كثرة مفاتنها، وتنوع مظاهر حسنها وجمالها .

وابتلاء الليل امرأ القيس – أيضا – واختباره إياه بإرسال ستور ظلامه عليه بأنواع الهموم في قوله : " وليل كموج البحر أرخى سدوله ...." إنما يحدث على وجه التجدد والاستمرار مرة بعد أخرى، والمقام يقتضي هذا التجدد والاستمرار ؛ لدلالته – بطريق اللزوم – على كثرة الهموم، وتنوع ضروب الابتلاء، وتأكيد هذا من قرينة السياق ؛ بدلالة جمع الهموم جمع الكثرة في قوله : " بأنواع الهموم "، وبدلالة تشبيه الليل بموج البحر في أول البيت المذكور .

وإنما حذف متعلق الفعل المضارع : " ليبتلي " المعلل به ؛ مراعاة للبعد الإيقاعي، وانسجام النغم وتوافقه في القوافي التي بنيت على روى اللام المكسورة .

ولاقتضاء المقام هذا الحذف ؛ فإنه مقام ضيق ؛ بسبب تسلط الهموم والأحزان عليه، واحتواشها إياه من كل حدب وصوب، وجثومها الشديد على صدره .

وقد ضاعف من الدلالة على قوة أثر الهموم في نفس الشاعر، وإبراز شدة وطأتها على قلبه إشباع حركة الروي المكسورة ياء في هذا الموضع، وامتداد النفس بصوت أزيزها ؛ ليتعانق هذا الإشباع مع ما سبق في نسق البيت – أيضا – من تشبيه الليل بموج البحر على تصوير طول الليل وامتداده، وبطء مرور ساعاته وأوقاته، وهذا مما يتطابق تمام المطابقة مع مقتضى حال المهموم المحزون في الشعور بتثاقل حركة الزمن، والإحساس ببطء مرورها، وغاية طولها، وهذا معنى أفاض فيه الشعراء في مختلف العصور .

وصيغة المضارع في جملة لبيد: " لأعل منها حين هب نيامها " هي التي تصور بمبناها ومعناها فرط ولع لبيد بالخمر، وشدة إدمانه إياها، وكثرة معاقرته لها مرة بعد أخرى، حتى بادر بشربها صياح الديكة وقت السحر ؛ إعلاما ببزوغ الصبح وانفلاق ضوئه، فينال نهمه منها قبل أن يهب من النوم طالبوها الذين اعتادوا الصبوح بكؤوسها المتفاوتة[1]، فإن صيغة المضارع تفيد التجدد والحدوث، ومادته تدل على إعادة الشرب كرة في إثر كرة ؛ إذ العل : هو الشرب الثاني، والثالث، والرابع الذي يأتي بعد الشرب الأول[2] ؛ لتتضافر كل هذه الوسائل على تأكيد معاني الاقتدار، وتصوير ملامح التفرد والتميز التي بذ بها الشاعر أقرانه، وتفوق بها على زمانه .

وكذلك الشأن في قول عنترة : " لأقضي حاجة المتلوم " ؛ حيث تجد صيغة المضارع : " لأقضي " هي التي تصور – بدلالتها على الاستمرار التجددي – فرط شغف عنترة بهذه الدار، وتعكس شدة حبه لمن كانوا يقطنونها، وتنادي على طول وقوفه على عرصاتها، وامتداد مكثه في أجوائها، ليقضي وطره منها .

---

(١) ينظر شرح القصائد العشر للتبريزي ص٢٣١ .

(٢) ينظر مقاييس اللغة لابن فارس، عل ١٢/٤ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ١٩٧٩م ، ولسان العرب لابن منظور علل ٣٠٧٨/٤ ،/ دار المعارف، مصر، بدون تاريخ.

كما أن تعدية الفعل نفسه إلى المفعول، وإيثاره من لفظ " حاجة "، وإضافتها إلى الاسم الظاهر خاصة، وهو : " المتلوم "، ومعناه : المتمكث المترقب[١]، دون أن تضاف للضمير، مع أن المقام ثم للإضمار ؛ إذ أصل العبارة أن يقال: لأقضي حاجتي " هو الذي يعكس – من وجه آخر – مشاعر القلق والاضطراب التي تملكت على الشاعر وجدانه، ويصور حال الدهشة والذهول التي بدت ظاهرة على ملامحه من شدة جزعه على فراقها، وفرط بكائه عندها على أيام وصالها وقربها مرة بعد مرة ؛ لتتضافر كل هذه العناصر في بناء الجملة التعليلية على تجسيد عالم نفسي متكامل ؛ يتراءى فيه الشاعر محلقا في آفاق تصوره الذاتي، وحلمه الحيوي الذي اعتبر تحقيقه الغاية المنشودة، والهدف الأسمى من وراء ممارسة الحياة الحقة[٢].

ومثل هذا الشرح السابق يتراءى الأمر للناظر في بيت النابغة : " هذا لأبرأ من قول قذفت به ...."، وفي بيت زهير : " فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ......"، فإن صيغة المضارع التي دخلت عليها اللام المعللة في بيت النابغة " لأبرأ " هي الأدخل في مقام الاعتذار الذي جاء البيت في نسقه ؛ لأنها الأبلغ في نفي التهمة عن نفسه ؛ وإزالة الشبهة من حوله فيما نسل إليه، وهي الأقوى في تحقيق قسمه ؛ وتأكيد صدق مباهلته في أبياته السابقة : " إذا فلا رفعت سوطي إلى يدي ...." ؛ لدلالتها – من وجه – على ظهور دليله، ووضوح برهانه، وندائها – من وجه آخر – على كثرة أمارات براءته، وتنوع حجته، والمعنى: أقسمت هذا لأجل أن أبرأ مما رميت به عندك من قول شقيت به، وكان وقعه قاسيا على نفسي[٣].

وصيغة المضارع التي دخلت عليها اللام المعللة في بيت زهير " ليخفى " هي التي تعكس شدة الحرص على الإخفاء، وتصور غاية الإمعان في الكتمان؛ لدلالتها على استمرارية المحاولة، وتجددها مرة بعد أخرى .

وأما المزية الثانية في دخول اللام التعليلية على الفعل المضارع فترجع إلى اعتبار حال الجملة وهيئتها بعد التأويل ؛ إذ تؤول " أن " المضمرة جوازا مع الفعل المضارع بمصدر مجرور باللام، وحينئذ تفيد الجملة التعليلية معنى الثبوت والدوام ؛ لبروزها في معرض الاسمية المنبئة عن ذلك، ليتعانق إخراج الجملة هذا المخرج مع وقوعها موقع العلة على تقرير المعنى المقصود وتوكيده، وتثبيته وتمكينه .

وإن شئت بيانا لذلك فراجع قول امرئ القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

(١) ينظر مقاييس اللغة لابن فارس، لوم ٢٠٢٢/٥ ، ولسان العرب لابن منظور لوم، ٤١٠١/٥

(٢) ينظر كلاسيكيات الشعر العربي ، المعلقات العشر . دراسة في التشكيل والتأويل . د/صلاح رزق ، ٣٧٨/١ ، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م ، دار غريب للطباعة والنشر – القاهرة .

(٣) ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٢٤٣ ، تحقيق : محمد إبراهيم سليم .

حيث تؤول " أن " المضمرة جوازا مع الفعل المضارع " لتضربي " بمصدر مجرور بعد اللام على هذا النحو : " إلا للضرب بسهميك في أعشار قلب مقتل "؛ للدلالة على ثبوت الضرب ودوامه، وأن هذا الشأن هو صفة لحاظ المحبوبة الملازمة لها، والتي لا تنفك عنها أبدا، وهذا تقرير لشدة حسنها، وقوة سحر عيونها، وفتك لحاظها، وتصوير لغاية عجزه، ونهاية ضعفه حيال هذا الجمال الساحر، والسحر الفاتن .

وراجع قول امرئ القيس – أيضا – :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علي بأنواع الهموم ليبتلي

فإنك تجد " أن " المضمرة جوازا، مع الفعل المضارع " ليبتلي " في تأويل مصدر مجرور باللام على هذا النحو " للابتلاء " ؛ للدلالة – أيضا – على ثبوت الابتلاء ودوامه، وأن هذا ديدن الليل معه، وصفته الملازمة له، والتي لا تنفك عنه بحال؛ للتأكيد على شدة صلابة الذات الشاعرة، وتصوير مدى قدرتها على مجابهة المحن، مع شدتها وقسوتها، وتجاوزها سريعا، وعلى هذا النحو السابق يمكن قياس سائر المواضع .

أما دخول اللام المعللة على الاسم فلم يرق إلى أن يمثل خصيصة من خصائص بناء الجملة المعللة باللام في شعر المعلقات ؛ لمجيئه في موضعين اثنين فقط من أصل ثمانية، وبنسبة لا تزيد عن ٢٥% من إجمالي المواضع المدروسة في هذا المبحث، ويرجع السر في ذلك – من وجه – إلى غائية العلة، وحصولها في المستقبل، وذلك على النحو الذي سبق تفصيله، ويرجع – من وجه آخر – إلى سمت العلة وطبيعة الدوران فيها ؛ إذ تدور حسبما قرر علماء الأصول[(١)] – مع المعلول وجودا وعدما، وهذا الدوران يستلزم حركية العلة ويقتضيها، وتعلق الحركة بالزمان واقترانها به من المقررات المعلومة، والمسلمات البدهية، وهذا يجعل الأفعال ؛ لخصوصية دلالتها على حركة الزمان ودورانه أكثر مناسبة وانسجاما مع سمت العلة وطبيعتها، بخلاف الأسماء فإن دلالتها على الثبوت والدوام، وتجردها من عنصر الزمن يجعلها أقل مناسبة وفاعلية في هذه السياقات .

فالموضع الأول جاء في قول امرئ القيس من معلقته:

فَتوضِحَ فَالمِقراةِ لَم يَعفُ رَسمُها   لِما نَسَجَتها مِن جَنوبٍ وَشَمأَلِ

حيث دخلت اللام على الموصول في قوله " لما نسجتها من جنوب وشمأل"، ودخول اللام على الاسم في هذا الموضع مما يقتضيه المقام، وذلك لما يتعلق بالمعلول من نوع غرابة وبعد ؛ فعدم عفاء الرسم في المواضع المذكورة : " فتوضح فالمقراة "، مع تقادم الزمن، وطول الأمد، وبعد العهد مما يثير الدهشة، ويدعو إلى الاستغراب، ويبعث على الشك والريبة ؛ لخروجه عن السنن

(١) ينظر الإحكام في شرح أصول الأحكام لابن حزم ٩٩/٨ ، تحقيق : أحمد محمد شاكر – دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، بدون تاريخ ، كما ينظر نفائس الأصول في شرح الوصول للقرافي ٣٤٣/٨ ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م .

المعهود والواقع المطرد المشهود من عفاء الرسم واندراسه بتقادم الزمن، وطول العهد، فتطلب هذا نوعا من الإثبات والتحقيق أقوى وآكد، وأرسخ وأمكن ؛ وفاء بحق المعنى، ونزولا على مقتضيات المقام، والجملة الاسمية أدخل في تحقيق هذا الغرض، وأوفق بهذا المقام ؛ لدلالتها على الثبوت والدوام الذي يقتضي التقرير والتوكيد، والتثبيت والتمكين .

وقد تعانق مع ما سبق من خروج الجملة التعليلية مخرج الاسمية في تعضيد المقام، وتعميق الدلالة مجيء مدخول اللام اسما موصولا، هو " ما " خاصة، وكون صلتها جملة فعلية ذات فعل ماض " نسجتها " ؛ – للدلالة على تحقق وقوع النسج وحصوله – وإخراج متعلق هذا الفعل في صورة التفسير والتقسيم: " من جنوب وشمأل "؛ للمبالغة في تأكيد عدم عفاء الرسم وتقريره، وتحقيق بقائه مع تقادم الزمن وتشديده .

والموضع الثاني جاء في بيت زهير :

يُؤَخَّر فَيوضَع في كِتابٍ فَيُدَّخَر لِيَومِ الحِسابِ أَو يُعَجَّل فَيُنقَمِ

حيث دخلت اللام على الظرف المضاف في قوله : " ليوم الحساب "، وأصل الكلام : ليحاسب عليه في يوم الحساب " وإنما دخلت اللام على الاسم في هذا الموضع دون الفعل ؛ لأنه الأوفق بمقام التحذير من كتمان الغدر والخيانة، والترهيب من نقض العهود والمواثيق، الأدخل في إلقاء الخوف والفزع، وبث الرعب والهلع في نفوس المخاطبين به والتعريض بهم(١) ؛ لما فيه من التعجيل ببالغ النذارة، وقوة المبادرة إليها، ولما فيه من دلالة على ثبوت المحاسبة في هذا اليوم ورسوخها .

وقرينة هذا من إضافة لفظة " يوم " منكرة إلى كلمة " الحساب " معرفة؛ زيادة في التفخيم والتهويل، والترهيب والتخويف .

ومن تقديم التحذير من العقوبة المدخرة في الآخرة : " ليوم الحساب " على التحذير من العقوبة العاجلة في الدنيا: " أو يعجل فينقم " .

إن دخول اللام التعليلية على الفعل المضارع في غالب ما سبق، أو على الاسم يجعل هذه الجمل نصا صريحا في التمحض للعلية، وتخليصها لهذا الغرض، ولا شك في أن إخراج الكلام هذا المخرج من شأنه أن يزيل كافة أسباب الشك والاحتمال من حول الحكم المعلل، ويقطع على السامع جميع الهواجس والظنون التي قد تنبعث من الوجدان نحوه، وهذا – لا شك – أنفى للشبهة عن الحكم، وأدخل في التحقيق، وأدعى إلى إثبات المعنى وتقريره ؛ فإن علة الحكم هي دليله المصحح له، وهي برهانه المقتضى قبوله في العقل السليم، والمنطق المستقيم .

على أن الذي يعاود الجملة التعليلية التي دخلت فيها اللام بالتأمل مرة أخرى يجد أن أبرز خصائص بنائها أنها خرجت في جميع مواضعها من شعر المعلقات في صورة الخبر، دون صورة

---

(١) قيل : قصد بذلك التعريض بحصين بن ضمضم ، حين قتل ورد بن حابس بعد الصلح ، ينظر شرح القصائد السبع الجاهليات لابن الأنباري ص٢٦٦ .

الإنشاء، يستوي في ذلك دخول اللام على الفعل ودخولها على الاسم، وراجع المواضع المذكورة سلفا : " لما نسجتها من جنوب وشمأل – لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل– ليبتلي– ليخفى – ليوم الحساب– لأعل منها حين هب نيامها – لأقضي حاجة المتلوم – لأبرأ من قول قذفت به .... " تتأكد عندك هذه النتيجة، وتتقرر لديك هذه الخصيصة .

وتعليل هذا ونكتته – من وجه – أن الأسلوب الخبري هو أقدر الأساليب وأوفاها بتصوير الواقع، وإبرازه في صورة جلية واضحة، لأنه عبارة عن حكاية الواقع وتجسيده كما هو، أو كما يحسه الشاعر، ويراه في عينه، ويرتسم في مخيلته، أو كما ينبغي أن تكون عليه صورته؛ وذلك لاشتماله على النسبتين : الكلامية والواقعية، مع إمكان توسيع دائرة الصدق والكذب لتتجاوز حدود الحقيقة والواقع إلى اعتبار الصدق والكذب الفنيين .

ومن وجه آخر : فإن إيثار الأسلوب الخبري في هذه المواضع هو الذي ينبئ عن قناعة الشاعر الشديدة بما يخبر به، ويعكس ثقته التامة بصدق خبره وصحة مضمونه، فلا يخشى حياله ردا أو مخالفة.

ومن وجه ثالث: فإن إخراج الجملة التعليلية المصدرة باللام مخرج الخبر، وبروزها في معرضه، هو الذي يتناغم مع مقامات الكلام التي جاءت في سياقاتها هذه العلل ؛ لدلالته – أولًا – على شدة تلبس العلة بالمعلول، وغاية اقترانها به في الحصول ؛ حتى كأنهما وقعا في لحظة زمنية واحدة .

وقرينة هذا من دخول اللام في أغلب هذه المواضع على الفعل المضارع الذي تنبئ صيغته على أن الفاعل قد شرع في الامتثال، وتلبس بالفعل وقت الخطاب .

أو تدخل قليلا على صيغة الاسم المنبئة عن الدوام والثبوت الذي يقتضي بطريق اللزوم وجود الحدث وتحققه .

ولأنه – ثانيًا – هو الذي يضفي على مضامين هذه العلل هالة من الوضوح والظهور، والبيان والكشف بعد الخفاء والغموض .

وهو الذي ينقلها – ثالثًا – من دائرة الخمول إلى دائرة الشهرة والذيوع، والسعة والانتشار، ومن دائرة القلق والاضطراب إلى دائرة الرسوخ والثبات، حتى كأن مضامين هذه العلل قد صارت من الحقائق المعلومة، والمسلمات المشهورة، والقضايا الثابتة التي لا يتطرق إليها شك أو احتمال، ولا تحوم حولها شبهة، ولا يتلبس بها إنكار أو جحود ؛ لما يتسم به الأسلوب الخبري من الطابع التقريري الذي يقوم على الإقناع والتأثير، ويتميز بهدوء النبرة، ولطف العبارة، والبعد عن صخب المشاعر وضوضاء الانفعال ؛ ولذلك يدخلونه ضمن لغة العقل والمنطق[١]، وذلك على العكس

---

(١) ينظر المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية ، د/ عبد المجيد عابدين ص٥٩ ، مطبعة الشبكشي بالأزهر ، القاهرة ١٩٥١م .

تماما من الأسلوب الإنشائي الذي يتسم بقوة النبرة، وحدة الانفعال، وفوران العاطفة ؛ ولذلك يطلقون عليه الأسلوب التأثري الانفعالي(١)، لخروجه – في الغالب – مخرج الطلب الذي يستدعي أمرا مطلوبا .

وتأكيد هذا من قرينة السياق ؛ بدلالة خلو الجمل التعليلية التي دخلت فيها اللام في المواضع السابقة من جميع المؤكدات، حتى كأن المخاطبين بها في غاية التسليم بحقائقها، وخلو الذهن من مضامينها، كأن عدم عفاء الرسم واندراسه، مع طول الزمان، وتقادم العهد ؛ لتعاقب هبوب ريحي الشمال والجنوب عليه في بيت امرئ القيس الأول :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل

وكأن ذرف عيني المحبوبة الدموع للضرب بسهمي لحاظها في أعشار قلب الشاعر المكسر في بيته الثاني :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي   بسهميك في أعشار قلب مقتل

وكأن إرسال الليل ستور ظلامه على الشاعر بأنواع الهموم للابتلاء في الموضع الثالث من معلقة امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علي بأنواع الهموم ليبتلي

وكأن إيقاف عنترة ناقته الضخمة التي تشبه القصر في ديار المحبوبة لقضاء حاجة المتمكث في قوله :

فوقفت فيها ناقتي وكأنها   فدن لأقضي حاجة المتلوم

كل ذلك وغيره مما يمكن أن يقاس عليه من المواضع الثمانية المذكورة قد صار أمرا معلوما لكل أحد، مسلما به عند كل سامع، ولا يتطلب في إثباته وتزجيته أكثر من مجرد الإخبار به، ومن دون تجشم عناء التوكيد وطريقته ؛ لأنه صار أمرا بدهيا، أو كالبدهي؛ لتتضافر كل هذه الخصوصيات المستوحاة من وراء التعبير بالأسلوب الخبري – في مقام الوقوف مع الأطلال، وبكاء آثار الديار في بيت امرئ القيس الأول : " فتوضح فالمقراة ...." – على تصوير هذا الحضور الطاغي لذكريات تلك الديار في قلب الشاعر، وتجسيد فرط تعلقه بها؛ لدلالته على شدة وضوح الأثر، وغاية ظهوره، وندائه على قوة فاعلية الريح في بقاء الرسم ورسوخه، وعدم انطماسه أو اندراسه .

وهو الذي يعكس – في مقام استعطاف المحبوبة والتودد إليها في بيت امرئ القيس الثاني: " وما ذرفت عيناك ......" – شدة فتك لحاظ المحبوبة بسويداء قلبه، وقوة ظهور أثرها في أعماق نفسه، وينبئ عن غاية ضعفه، ونهاية عجزه أمام سطوة جمال لحاظها الآسر، وسحر عيونها القاتل، وهكذا سائر المواضع؛ يمكن إجراؤها على هذا النحو من التفصيل والتحليل.

وثمت خصيصة بلاغية أخرى يمكن عدها من أبرز خصائص بناء الجملة التعليلية المصدرة باللام، وهي أنها تأتي في كل مواضعها من شعر المعلقات مفصولة عما قبلها، غير

---

(١) ينظر اللغة العربية معناها ومبناها ، د/ تمام حسان ص٨٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م.

معطوفة عليه بأي من حروف العطف، وراجع – إن شئت – قول امرئ القيس: " لما نسجتها من جنوب وشمال "، وقوله: " ليبتلي " تجده قد فصل عما قبله من قوله: " فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها " وقوله: "وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم " .

ولك أن تراجع – أيضا – قول زهير: " ليخفى "، وقول عنترة : " لأقضي حاجة المتلوم "، وقول النابغة : " لأبرأ من قول قذفت به " وكذا قول لبيد : " لأعل منها حين هب نيامها "، فإنك تجد الجملة التعليلية في المواضع السابقة قد جاءت مفصولة عما قبلها، غير معطوفة عليه .

ونكتة هذا الفصل وعلته تكمن في تنزل الجملة التعليلية في كل ما سبق منزلة الجواب عن سؤال أثاره الكلام السابق عليها؛ إما لاشتمال الجملة المعلة على أمر يثير الدهشة، ويدعو إلى التعجب والاستغراب، وإما لما يتلبس بها ويلفها من غيوم رقيقة، وظلال شفيفة تخلق في النفس تلك الحركة الانفعالية الموارة، وتثير فضولها إلى الوقوف على ما يزيل تلك الحجب التي تلبست بالحكم، وحالت دون وضوحه تمام الوضوح، فتأتي الجملة التعليلية مفصولة غير معطوفة– إذ لا يعطف الجواب على السؤال ؛ لأنهما في حكم جملة واحدة – استجابة لتلك الهواتف، وتلبية لتلك النوازع، وتجيب عما عساه أن يكون قد قدر وقوعه في أنفس المستمعين، إلا أن اللام لما دخلت فيها خلصتها للتمحض للعلية صراحة ولم تترك مجالا لهذا الاعتبار .

وإن شئت بيانا لذلك فلك أن تراجع قول امرئ القيس: " فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها "، فإن الحكم بنفي عفاء رسم الدار في الموضعين المذكورين، مع طول المدة، وبعد العهد لمما يثير الدهشة، ويدعو إلى الاستغراب ؛ لجريانه على غير السنن المعهود في شأن الديار والمنازل، وهذا ما يدفع إلى التساؤل، ويثير الترقب إلى الإفصاح عن سبب هذا الحكم الغريب، عندئذ تجيء الجملة التعليلية: " لما نسجتها من جنوب وشمأل " ؛ لتزيل هذا الاستغراب، وتذهب هذه الوحشة، وتطفئ لهيب النفس الظمأى وهجيراها، ببيان العلة الماثلة في اختلاف ناحية هبوب الريح وتغايره من بين جنوب وشمال، فإذا غطتها إحدى الريحين بالتراب كشفت الأخرى التراب عنها .

ولك – أيضا – أن تراجع قول امرئ القيس : " وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم " لترى أنه قد أثار – بما فيه من نوع غرابة – في أنفس المستمعين تساؤلا عن سبب هذا الحكم الغريب، كأنه قيل : لماذا أرخى الليل ستور ظلامه على الشاعر خاصة وأرسلها بأنواع الهموم ؟ فجاء قوله : " ليبتلي " ليميط اللثام عن العلة، وتزيل ما تلبس بالحكم من غرابة .

وكذلك شأن النهي عن الكتمان الذي خرج مخرج النصح والإرشاد في قول زهير: " فلا تكتمن الله ما في صدوركم " أن يثير الوجدان، ويشحذ الانفعال نحو الوقوف على علة الكتمان المنهي عنه، فجاء قوله : " ليخفى " كأنه جواب عن ذلك، وبيان لحكمته .

وعلى هذه الطريقة – أيضا – يجري الأمر في قول عنترة : " فوقفت فيها ناقتي وكأنها فدن"، وفي قول النابغة : " هذا " الذي أشار به إلى ما تقدم في الأبيات الأربعة السابقة عليه من معاذير

ومباهلات، وأغنى ذكره عن إعادتها مفصلة مرة أخرى، وكذلك الأمر في قول لبيد : " باكرت حاجتها الدجاج بسحرة "، فإنك تجده وقد أثار في أنفس المستمعين تساؤلا عن سبب إيقاف عنترة ناقته في دار المحبوبة، وعن داعي تلك المعاذير المقدمة، والأيمان المغلظة، والمباهلات الغريبة في أبيات النابغة، والتي طواها اسم الإشارة في أول البيت المذكور طيا، وعن علة فرط بكور لبيد إلى معاقرة الخمر بسحرة، وقبل صياح الديكة ؛ إيذانا ببزوغ الفجر، عندئذ تجيء الجملة التعليلية : " لأقضي حاجة المتلوم – لأبرأ من قول قذفت به – لأعل منها حين هب نيامها " وكأنها استجابة لهواتف تلك النفوس الظمأى، وتمتمات الوجدان الملتهب ؛ ببيان السبب في كل، والنص على العلة صراحة؛ بإدخال اللام في الجملة التعليلية في المواضع الثلاثة .

أما بيت امرئ القيس: " وما ذرفت عيناك إلا لتضربي ..... " فلما لم يكن بكاء المحبوبة من حزن أصابها، أو أمر أهمها، أو غير ذلك من أسباب البكاء المعهودة ودواعيه، وإنما كان لأجل ما تخيله الشاعر من علة هي في غاية الغرابة، ونهاية البعد خرجت العلة والمعلول مخرجا مؤكدا، وفي نسج شديد التداخل والتعانق؛ هو لباس القصر بطريق النفي والاستثناء الذي جعل العلة والمعلول شيئا واحدا، أو كأنهما كذلك ؛ حيث جسد المعلول طرف القصر الأول، وهو الواقع قبل " إلا "، ومثلت العلة طرف القصر الثاني وهو المقصور عليه الواقع بعد أداة الاستثناء، قصر صفة على موصوف، أو العكس(١)، قصرا ادعائيا ؛ للمبالغة؛ فقصر بكاء المحبوبة على الضرب بسهمي لحاظها في أجزاء قلبه المكسر من شدة الحب، وفرط الوجد.

وأما قول زهير: " ليوم الحساب " فيجوز أن يكون هذا الظرف المجرور المضاف إلى ما بعده قد تعلق بالفعل " فيدخر " وهو – على هذا الوجه – ليس مما نحن بصدد دراسته – هنا –، ويجوز أن يكون قد تعلق بمحذوف دل عليه السياق، تقديره : " ليحاسب عليه في يوم حساب(٢) "، وحينئذ يكون مما نحن بصدد دراسته في هذا الباب، وهذا هو الذي تميل إليه النفس ؛ لقوته ؛ فإن دلالة الجملة أقوى وآكد من دلالة المفرد، ومن دلالة شبه الجملة، وإنما حذف العامل ؛ تعجيلا بالإنذار ومسارعة إلى إدخال الروع والفزع في قلوب من يكتمون الغدر والخيانة بذكر يوم الحساب، حتى يرتدعوا عن ذلك الفعل المشين .

وثمت خصيصة رابعة تعد من أبرز خصائص الجملة التعليلية التي دخلت فيها اللام في شعر المعلقات، وهي أن بعض عناصر هذه الجملة قد خرج في ثلة من المواضع وبرز في معرض المجاز، لغويا كان أم إسناديا ؛ ليتعانق المجاز – بسماته وخصائصه المعلومة(٣) – مع طبيعة

---

(١) فإن كلا الطرفين مما يصح فيه التأويل ؛ لكونهما في حكم الصفة ، إلا أن حمله على قصر الموصوف على الصفة أولى ؛ لكون العناية في البيت منصرفة إلى الاهتمام بالصفة والتأكيد على تحققها وثبوتها .

(٢) ينظر شرح ديوان زهير بن أبي سلمى للإمام ثعلب ص١٨ ، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، الطبعة الرابعة ٢٠١٥م .

(٣) والتي يعد من أبرزها تحقيق نوع من المبالغة والتأكيد ، والتشخيص والتجسيد .

العلة – في التقرير والتوكيد[١] – على تصوير قناعة المتكلم التامة بمضمون خبره، وامتلائه الشديد بمعناه، وتشبع وجدانه به، حتى صار عنده كالحقائق الراسخة، والمسلمات المشهورة التي لا تقبل الجدل أو المماراة، ولا يتأتى فيها الشك والريبة، كالذي تجده في قول امرئ القيس: " لما نسجتها من جنوب وشمأل "، حيث استعار النسج لفعل الريح في الرسم، استعارة تبعية في الفعل، وهذه الاستعارة تعكس قوة الأثر الذي يحدثه اختلاف جهة هبوب الريحين في بقاء الرسم في المواضع المذكورة ودوامه، حتى كأن الريح يد صناع أحكمته إحكاما، فتعالى على عوامل العفاء والفناء .

وتأكيد هذا من قرينة إسناد الفعل من النسج إلى ضمير الريح المستتر إسنادا مجازيا بعلاقة السببية ؛ إذ التقدير : للريح التي نسجت المواضع، والهاء تعود على الدخول، والحومل، وتوضح، والمقراة، ونسجت : صلة ما، وما فيه يعود على ما[٢]، وذلك للدلالة على قوة فاعلية السبب، وإبراز شدة تأثيره، حتى كأنه الفاعل الحقيقي للنسج .

وإنما خص الشاعر الجنوب والشمأل بالذكر ؛ اعتبارا بالأعم الأغلب ؛ فإنهما أكثر الجهات التي تهب الريح من قبلها في بلاد العرب .

وكالذي تجده في قول امرئ القيس – أيضا – : " لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل "، حيث استعار السهمين للحظي عيني المحبوبة، استعارة أصلية، ولا يخفي ما تنطق به الاستعارة في هذا السياق من دلالة على شدة جمال هذه اللحاظ، وغاية حسنها، وعميق أثرها، وقوة فتكها بقلبه، كما يفتك السهم المصمى في القلب المعمي .

وإنما آثر لفظ المثني من السهم ؛ للإيماء إلى كثرة وسائل القتل وتعددها، وتنوع مظاهر الفتك وتغايرها، والدلالة على استواء كل واحد من السهمين في الأثر المترتب عليه، والنتيجة المتعلقة به.

ولتحقيق نوع من المشاكلة التقديرية في نسق الكلام ؛ إذ المراد أنها ذهبت بقلبه كله، واستولت على جميع أجزائه، كما يستولي المقامر على جميع أعشار الجزور، وذلك لا يتأتى له بأقل من سهمين[٣].

وقد رشح الاستعارة السابقة باستعارات أخر، أولاها في قوله : " لتضر بي "؛ فإن الضرب من ملائمات المستعار منه، وهو مستعار للرمي، ثم اشتق من الضرب " تضربي "، استعارة تبعية في الفعل ؛ لتصوير شدة الأثر وظهوره، وقوة الإصابة وتمكنها، ولتتناغم استعارة الضرب للرمي مع ما ذكر بعد في سياق البيت من الأجزاء، والتكسير في قوله : " في أعشار قلب مقتل" .

وثانيها : في استعارة الأعشار للأجزاء في قوله السابق ؛ تشبيها لها بأعشار الجزور، حيث كان يقسم إلى عشرة أنصباء ؛ للدلالة على فرط استئثارها بقلبه كله، وأنها لم تترك فيه نصيبا لغيرها، كما يستأثر سهمي المعلي والرقيب بجميع أجزاء الجزور وأعشاره[٤].

---

(١) إذ هي كالدليل على صحة الحكم ، والبرهان على صدقه وحجيته .

(٢) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٢٢ .

(٣) ينظر شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص٤٤،٤٥ .

(٤) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٤٨ .

وثالثها: في استعارة المقتل في قوله: " قلب مقتل " للمذلل، أو المكسر، أو المخرق، للدلالة على شدة تهالكه في حبها، وفرط صبابته في هواها، وتصوير غاية ضعفه (١)، ونهاية استسلامه لسحر عيونها، وفتك لحاظها .

وكالذي تجده في إسناد الفعل المضارع من الابتلاء في قول امرئ القيس – أيضا – : "ليبتلي " إلى ضمير الليل، والليل ليس فاعل الابتلاء حقيقة، وإنما هو زمانه، وإسناد الفعل إلى الزمان فيه مبالغة وتخييل ؛ يتعانقان على تجسيد شدة الابتلاء، وتصوير ثقل وطأته، وينبئان عن كثرته وامتداده، حتى جاوز ذلك الفاعل الحقيقي إلى الزمان نفسه، فصار مبتليا هو الآخر.

وفي إسناد الفعل المضارع من الخفاء في قول زهير: " فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى " إلى الضمير العائد إلى " ما في صدوركم "، وحقه أن يكون مخفيا، وليس خافيا بنفسه، كما دل عليه وقوع الموصول السابق العائد إليه مفعولا به، فهذا من إسناد الفعل المبني للفاعل إلى المفعول، والعلاقة هي المفعولية ؛وقد قصد الشاعر ذلك للمبالغة في التخويف والترهيب من كتمان الغدر ونقض العهود والمواثيق، فمهما بلغ الأمر في ذلك من الخفاء فإن الله يعلمه، ويحاسب عليه في يوم الحساب، أو يعجل عقوبته في الدنيا .

وأخيرا: فإن من خصائص بناء الجملة التعليلية التي دخلت فيها اللام أن تتعدد قيودها في أكثر مواضعها من شعر المعلقات، وبرهان هذا أن تراجع قول امرئ القيس : " لما نسجتها من جنوب وشمأل "، وقوله – أيضا – : " لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل "، فقد قيد الفعل من النسج في الموضع الأول بالمفعول، وهو ضمير الغيبة المؤنث المتصل به، وقيد بالمجرور الذي عطف عليه نقيضه في قوله : " من جنوب وشمأل "، وقيد الفعل من الضرب في الموضع الثاني بمجرورين، أولهما قوله : " بسهميك "، وأما ثانيهما فقوله: " في أعشار قلب مقتل " .

وإن شئت بيانا آخر فلك أن تنظر في قول عنترة : " لأقضي حاجة المتلوم "، وفي قول النابغة: " لأبرأ من قول قذفت به .....ِ"، ولك أن تنظر – أيضا – في قول لبيد : " لأعل منها حين هب نيامها " ؛ لترى أن الفعل من القضاء في بيت عنترة قد قيد بالمفعول : " حاجة المتلوم "، وقيد الفعل من البراءة في قول النابغة بالمجرور : " من قول " الذي نعت هو الآخر بجملتين متعاقبتين بعده: " قذفت به– طارت نوافذه حرا على كبدي "، كما تعلق بالفعل من العل في قول لبيد قيدان، خرج أولهما مخرج المجرور : " منها " وخرج ثانيهما مخرج الظرف المضاف إلى الجملة بعده : " حين هب نيامها " .

---

(١) ينظر شرح القصائد العشر للتبريزي ص٤٤ ، كما ينظر الكشاف للزمخشري ٥٨٨/١ ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م، دار الريان للتراث، القاهرة ، وأساس البلاغة للزمخشري– أيضا– ٥٢/٢، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الطبعة الأولى ١٩٩٨م ، دار الكتب العلمية، بيروت .

وهذه القيود – على النحو الذي سبق تفصيله – مقصود إليها لتحقيق نوع من تناغم دلالات الخصوصيات في بناء التراكيب، فإن خصوصية العلة تكمن في التقرير والتوكيد، وإثبات الحكم – المعلول – بالدليل والبرهان .

وخصوصية القيود تكمن في تربية الفائدة من الكلام ؛ إذ من المقرر المعلوم أن الكلام كلما ازداد تقييدا ازداد فائدة، وازداد تقريرا وتوكيدا، وتحقيقا وتشديدا(١).

ووراء كل في موضعه من الأسرار والنكات التي تأتي متوافقة مع سياق الكلام ومقامه، ومتعانقة على الوفاء بحق المعنى، وتصوير الغرض المقصود .

فوراء التقييد في الموضع الأول من معلقة امرئ القيس: " لما نسجتها من جنوب وشمال " إيضاح وبيان للأمر المبهم وهو الريح ؛ تفخيما وتعظيما لشأنها، وزيادة تأكيد على فاعلية دورها في بقاء أثر الرسم، وعدم عفائه، وقرينة هذا من إخراج الكلام مخرج التقسيم بدخول " من " التفسيرية في الكلام : " من جنوب وشمأل "، ومن عود الضمير المستتر في " نسجتها " على الريح التي أوثر في التعبير عنها " ما " الموصولة خاصة ؛ لما فيها من إبهام الدلالة وشمولها، وهذا مما يقتضي تفخيم الأمر وتعظيمه .

ووراء التقييد في الموضع الثاني من معلقة امرئ القيس : " لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل " إشارة إلى شدة نفاذ سهمي لحاظ المحبوبة، ووصولها إلى مكان غائر في قلبه، واستقرارها في أعماقه، وذلك حسبما ينبئ عنه إيثار حرف الظرفية " في " دون غيرها .

ووراء التقييد في بيت النابغة : " لأبرأ من قول قذفت به ....." نداء على شناعة هذا القول الذي رمي به وفظاعته، وبعده في الزور والبهتان، بدلالة تنكيره، ونعته بجملتين كاشفتين، متعاقبتين بعده : " قذفت به – طارت نوافذه حرا على كبدي " وهذا كله مما يقتضيه مقام الاعتذار ويدعو إليه، لما فيه من زيادة تأكيد على براءته، وتقرير لنزاهة ساحته ؛ ولدلالته على ثبات موقفه، وقوة حجته، وهكذا سائر المواضع، يمكن قياسها في التفصيل والتحليل على ما سبق ذكره، والله الموفق للصواب .

---

(١) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ص ٥٣ ، دار الجيحل – بيروت ، بدون تاريخ ، كما ينظر شروح التلخيص ٣٢/٢ ، دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .

" المحور الثاني "

" خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالفاء "

تدخل الفاء على الجملة التي تتضمن تعليلا فتجعلها نصا صريحا في هذا المعنى؛ لدلالتها – في وضوح شديد – على السببية(1)، وهذا من شأنه أن ينفي عن الحكم المعلل بها كل شبهة ويزيل عنه كافة الاحتمالات، وجميع أسباب الشك والريبة.

ومن وجه آخر: فإن دخول الفاء في الجملة التعليلية ينبئ عن ارتباطها الشديد، وصلتها الوثيقة بالجملة المعلة، حتى كأنهما شيء واحد، وقد خرجا مخرجا واحدا في التقرير والإثبات؛ لأن دلالة الترتيب مع التعقيب التي تستلزم الحصول على وجه السرعة، ومن دون مهلة أو تراخ لا تفارقها، ولا تنفصل عنها(2).

وحين نراجع الجملة التي وقعت تعليلا في شعر المعلقات، ودخلت فيها الفاء نجد أنها جاءت في ثمانية مواضع، جاء الموضع الأول منها في معلقة امرئ القيس:

١٦– فَمِثْلُكِ حُبلى قَد طَرَقتُ وَمُرضِعٍ فَأَلهَيتُها عَن ذي تَمائِمَ مُحوِلِ(3).

وجاء الموضع الثاني في معلقة طرفة :

١٠٥– عن المرءِ لا تسألْ وأبصرْ قرينَهُ فإنَّ القرينَ بالمقارِنِ مُقْتَدِي(4)

وجاء الثالث والرابع في معلقة عبيد بن الأبرص :

١٤– فَكُلُّ ذي نِعمَةٍ مَخلــــوسُها وَكُلُّ ذي أَمَلٍ مَكــذوبُ (5)

٢١– أَفلِح بِما شِئتَ فَقَد يُبلَغُ بِال ضَعفِ وَقَد يُخدَعُ الأَريبُ (6)

وجاء الخامس في معلقة عمرو بن كلثوم :

٣٩– أَثني عَلَيَّ بِما عَلِمتِ فَإِنَّني سَمحٌ مُخالَطَتي إِذا لَم أُظلَمِ (7) .

وأما الموضع السابع والثامن فجاء في معلقة لبيد :

٨٥– فَاِقنَع بِما قَسَمَ المَليكُ فَإِنَّمــــا قَسَمَ الخَلائِقَ بَينَنا عَلّامُها(8) .

٨٧– فَهُمُ السُعاةُ إِذا العَشيرَةُ أُفظِعَت وَهُمُ فَوارِسُها وَهُم حُكّامُهــــا

---

(1) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المصري ١٦٣/١ .

(2) ينظر المرجع نفسه ١٦٣/١ ، كما ينظر الجني الداني في حروف المعاني للمرادي ص٦١ وما بعدها .

(3) ديوان امرئ القيس ص١٢ .

(4) ينظر شرح القصائد العشر للتبريزي ص ١٤٨ .

(5) ينظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن الخطاب القرشي ص٣٨٢ ، تحقيق محمد البجاوي : نهضة مصر للطباعة والنشر ، بدون تاريخ .

(6) ينظر المرجع نفسه ص ٣٨٢ .

(7) ديوان عنترة بن شداد ص١٦ ، تحقيق : حمدو طماس ، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م ، دار المعرفة – بيروت.

(8) ديوان لبيد بن ربيعة ص١١٦ .

٨٨- وَهُمُ رَبيعٌ لِلمُجاوِرِ فيهُــــــمُ وَالمُرمِلاتِ إِذا تَطاوَلَ عامُها

٨٩- وَهُمُ العَشيرَةُ أَن يُبَطِّئَ حاسِدٌ أَو أَن يَميلَ مَعَ العَدُوِّ لِئامُها(١).

ومن اللافت للنظر أن الفاء دخلت على الجملة الفعلية في موضعين اثنين من هذه المواضع، بينما دخلت على الجملة الاسمية في ستة منها، وذلك على عكس الصورة السابقة التي اقترنت فيها اللام بالجملة التعليلية، وهنا تقتضينا المنهجية في البحث أن نتوقف لنسجل إحدى أبرز خصائص بناء الجملة التعليلية في هذه الصورة، وهي دخول الفاء في الأعم الأغلب على الجملة الاسمية .

وتوجيه هذا بلاغيا يكمن في الدلالة على أن مضامين هذه الجمل التي دخل فيها حرف السببية حقائق ثابتة، ومعان راسخة، لا يعتريها التبدل أو التغير ولا تقبل الزيادة أو النقصان؛ إما بحسب الحقيقة والواقع، وإما بحسب ما يتراءى للشاعر، ويرتسم في مخيلته أنها قد صارت – لامتلاء نفسه بها، وتشبع وجدانه بها –كذلك حقائق واقعة، وليست مما يتجدد حدوثه أو يتكرر مرة بعد مرة، وحالا بعد حال ؛ لما للجملة الاسمية من سمات وخصائص تجعلها الأوفق بهذه الدلالات، الأقدر على تصوير هذه المعاني، إذ تفيد الثبوت والدوام الذي يستلزم تقرير المعنى وتوكيده، وتثبيته وتمكينه .

فطروق امرئ القيس الحبالي والمرضعات، ومجيئه إليهن ليلا(٢)، وإلهائه إياهن عن أولادهن ؛ لانشغالهن به، مع ما علم من حالهن من شدة عزوفهن عن الرجال والميل إليهن(٣) في قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول

المعلل به نهيه عن إبعاده من جناها المطيب بعد أمره إياها بالسير وإرخاء زمام البعير في قوله:

فَقُلتُ لَها سيري وَأَرخي زِمامَهُ وَلا تُبعِديني مِن جَناكِ المُعَلَّل (٤) .

مما لا يمارى فيه، ولا يتأتى دفعه بحال، لشدة ظهوره، ونهاية وضوحه، حتى صار في مخيلة الشاعر –كالحقائق الثابتة، والمعاني الراسخة، المعلومة لكل أحد، الظاهرة للعيان ؛ بقرينة خلو الجملة المعللة من جميع المؤكدات، وبقرينة خفض " مثلك " – التي قصد بها التعريض بغير المخاطبة – بـ" رب " محذوفة، وما يتوارى خلفها من دلالة الكثرة التي تستلزم الذيوع والانتشار .

ومن وجه آخر : فإن إخراج الجملة التعليلية هذا المخرج هو المطابق لطبيعة المقام المشحون بمشاعر التردد والشك، والإباء والرفض من قبل عنيزة ؛ بقرينة أمرها إياه بالنزول في قوله : " عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل "، وبدلالة أمره ونهيه إياها حسبما سبق في قوله : " فقلت لها سيري ...." ؛ لخروجها – حينئذ– على خلاف مقتضى الظاهر ؛ بتنزيل عنيزة منزلة خالي الذهن

---

(١) ينظر المرجع نفسه ص ١١٦ .

(٢) إذ الطروق : هو المجيء ليلا ، يقال : طرق القوم يطرقهم طرقا وطروقا ، جاءهم ليلا ، اللسان ، طرق ٢٦٦٣/٤ وما بعدها .

(٣) ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٤٠ .

(٤) المعلل : المطيب مرة بعد مرة . اللسان، علل ٣٠٧٨/٤، وينظر ديوان امرئ القيس ص ١٢

الذي ينبئ – من وجه، كما سبق – عن شدة ظهور الأمر ووضوحه، وذيوعه وانتشاره، وينبئ – من وجه آخر – عن فرط ثقته بنفسه، وقوة إدلاله بموقفه ؛ " فكثيرا ما طوع المستعصي المتأبي، المتحصن بأشكال عديدة من أشكال التحصن من قبل، حتى نال منه أقصى ما ينال "(١)، وقرينة هذا من مجيء صلة " حبلى " جملة فعلية ذات فعل ماض مقترن بـ" قد " : " قد طرقت " وعطف أخرى مثلها عليها بالفاء خاصة " فألهيتها عن ذي تمائم محول"(٢) الدالة على سرعة تحقق الإلهاء وفرط حصوله ؛ لتتعانق كل هذه الخصوصيات في نسج العبارة على تنبيه المرأة المذكورة إلى بالغ خطئها، واستنزالها عند رتبة عنادها، وهدهدة إبائها، وترويض جموحها؛ علها ترق له، وتذل لمطلبه أيما إذلال .

وإنما اقترنت الفاء بالجملة المعللة مع إمكان انفصالها عنها لتكون منزلة منزلة الجواب عن سؤال أثاره الأمر والنهي السابقان ؛ للدلالة – من وجه – على قوة التلازم، وشدة الارتباط بين العلة والمعل، وترتب العلة على المعلول على وجه السرعة، حتى كأنهما وقعا في لحظة زمنية واحدة .

والدلالة – من وجه آخر – على مخالفة ما بعد الفاء لما قبلها، وعدم دخوله فيه(٣)، فما قبلها إباء ورفض، وما بعدها من جنس الإذلال والانقياد .

وكون الصديق عنوان صديقه، وأمارة دالة عليه في قول طرفة: " فإن القرين بالمقارن مقتدى" المعلل به النهي عن السؤال عن المرء، والأمر بإبصار قرينه في قوله: "عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه" مما لا يختلف اثنان على ثبوته، والتسليم به، وأنه من الحقائق الظاهرة، والمسلمات المشهورة التي لا تتخلف ولا تتبدل، ومن ثم برز هذا المعنى في معرض الجملة الاسمية المنبئة عن الثبوت والدوام .

وتصوير عنترة جميل خلاله، وكريم أخلاقه من كونه سهل المخالطة، لين العريكة، إذا لم تمتد إليه يد بظلم ، وإخراجها في لباس الاسمية المنبئة عن الثبوت والدوام في قوله : " فإنني سهل مخالطتي إذا لم أظلم " الواقع علة لأمره القبيلة أو المحبوبة بالثناء عليه بما علمت من خلاله في قوله : " أثني علي بما علمت " هو الأبلغ في هذا المقام ؛ لدلالته على أن هذه الصفات قد صارت سجية لازمة في طبعه، وخلقا راسخا في جبلته .

وكون قوم لبيد هم السعاة في صلاح الحي، إذا نزل بهم أمر عظيم، وهم فوارسه الذين يمنعونه ويحمونه ، وهم حكامه الذين يرجع إلى آرائهم، وكونهم بمنزلة الربيع – أي : الخصب – لكل من

---

(١) كلاسيكيات الشعر العربي ، المعلقات العشر ، دراسة في التشكيل والتأويل ص١٨٥ ، د/صلاح رزق .

(٢) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص٣٩ .

(٣) ينظر الكتاب لسيبويه ٢٨/٣ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، والأصول لابن السراج ١٥٩/٢,تحقيق: د/ عبد الحسين الفتلى ، مطبعة النعمان – النجف الأشرف ، بدون تاريخ ، والمقتضب للمبرد /١٤-١٥ ، تحقيق : أ/ محمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ١٣٨٦هـ .

جاورهم، وللمرملات اللواتي مات أزواجهن، وكونهم العشيرة الذين يقومون بالأمر أن يبطئ حاسد، فيقول : قد أبطأوا في أمرهم، ولم يعجلوا الغوث ؛ حسدا منهم إياهم[١] في قوله من معلقته:

فهم السعاة إذا العشيرة أفظعت وهم فوارسها وهم حكامهـــا

وهم ربيع للمجاور فيهـــم والمرملات إذا تطاول عامها

وهم العشيرة أن يبطئ حاسد أو أن يلوم مع العدا لوامهـــا

الواقع علة وبرهانا على كونهم أوفى الأقوام أمانة، وأكثرهم حظا منها في قوله:

وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفى بأعظم حظنا قسامها

هو الأوفى في مقام الفخر، الأبلغ في كمال المدح، الأقوى في حسن الثناء والإشادة – ظاهر معلوم ؛ لخروجه مخرج الاسمية الدالة على أن هذه الصفات كلها قد صارت سنة فيهم، وجبلة في أخلاقهم لازمة لهم، ولا ينفكون عنها أبدا، وهكذا الشأن في سائر الجمل التعليلية التي خرجت هذا المخرج، وبرزت في هذا المعرض، واقترنت بها الفاء السببية[٢].

ولم تدخل الفاء التعليلية على الجملة الفعلية إلا في موضعين اثنين فقط، جاء أولهما في معلقة عبيد بن الأبرص :

أفلح بما شئت فقد يبلغ بال ضعف وقد يخدع الأريب

وجاء ثانيهما في معلقة لبيد :

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها

حيث دخلت الفاء في قول عبيد على الجملة الفعلية ذات الفعل المضارع المقترن بـ" قد ": " فقد يبلغ بالضعف وقد يخدع الأريب "، ودخلت في قول لبيد على الجملة الفعلية ذات الفعل الماضي الذي سبقته " إنما : " فإنما قسم الخلائق بيننا علامها " .

وإنما كان ذلك كذلك ؛ لأن إدراك الضعيف بضعفه ما لا يدرك القوى في بيت عبيد، وانخداع العاقل الأريب عن عقله[٣] ليس مما يطرد وقوعه، ويكثر حصوله، ويلزم حدوثه، حتى يجري مجرى الحقائق والمسلمات في الثبوت والرسوخ، والشهرة و الانتشار، وإنما يقع على وجه الندرة أو القلة مرة بعد مرة، وحالا بعد حال ؛ لشذوذه عن السنن المعهود، والواقع المشهود ؛ لذا كان دخول الفاء على الجملة الفعلية ذات الفعل المضارع خاصة مما يقتضيه المقام، ويتطابق مع مقتضى الحال .

---

(١) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٥٩٥-٥٩٦ ، وشرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص٢٤٩ .

(٢) كالذي تجده في قول عبيد : فكل ذي نعمة مخلوسها وكل ذي أمل مكذوب , فإنه أظهر من أن يستدل عليه، أو ينبه على وجهه ، وكذلك الشأن في قول عمرو: فإن قناتنا ...

(٣) ينظر شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص٤٣٩ .

وقرينة هذا من دخول " قد " التي تفيد التقليل على الفعل في الجملتين المتعاطفتين : " فقد يبلغ بالضعف – وقد يخدع الأريب " اللتين خرجتا مخرج العلة من الطلب السابق في قوله : " أفلح بما شئت " الذي يومئ إلى أن " المخاطب مطالب في كل الأحوال بالدأب والإصرار، والتمسك بما يراه غاية منشودة، غير مقعد بضعف، أو مغتر بعقل[1] .

ولأن القسمة على هذا النحو المذكور في بيت لبيد : " فإنما قسم الخلائق بيننا علامها " محل شك وارتياب، وموضع جذب ونزاع، فهي مما لم يسلم به للشاعر، ولم تجر عند المخاطب – وإن كانت في نفسها على خلاف ذلك – مجرى الظهور والوضوح، أو الرسوخ والثبات، حتى تخرج مخرج الاسمية المنبئة عن الثبوت والدوام، وقرينة هذا من دلالة جملة الطلب المعلة : " فاقنع بما قسم المليك "؛ فإنها ظاهرة الإيحاء في تعضيد هذا التوجه في التحليل .

وبقرينة إخراج الجملة المعللة نفسها مخرج التوكيد والتقرير بأكثر من مؤكد، وذلك على النحو الذي سيأتي تحليله لاحقا إن شاء الله – تعالى –، لذا دخلت الفاء على الجملة الفعلية ذات الفعل الماضي : " قسم " للدلالة على تحقق القسمة على النحو المذكور وتأكيد حصولها، وإزالة ما عرض لها من أسباب الشك، وعوامل الارتياب.

ومن أبرز خصائص بناء الجملة التعليلية التي اقترنت بها الفاء في شعر المعلقات بروزها في معرض الأسلوب الخبري المؤكد في بعض المواضع، والخالي من التوكيد في بعضها الآخر، وقد تقدم في المحور السابق بيان سر إخراج الجملة التعليلية في لباس هذا الأسلوب، وتفصيل نكتته . فيكتفي بما سبق ذكره هناك عن إعادته هنا مرة أخرى .

لكن الذي يثير الاهتمام، ويدعو إلى النظر والتأمل أن وسيلة التوكيد في المواضع التي جاء فيها الأسلوب الخبري تعليلا مؤكدا هي " إن " خاصة مقترنة بالفاء، ولا شك في أن تأكيد الكلام على هذا النحو السابق مما تقتضيه طبيعة الموقف وخصوصية المقام، ويتطابق مع مقتضى الحال ؛ فالمخاطب في هذه المواضع تتعاوره عوامل الشك والريبة، ونوازع التردد والحيرة، أو كان بحال ينزل معها هذه المنزلة.

وتأكيد هذا من قرينة السياق ؛ بدلالة إخراج الحكم المعل مخرج الطلب في هذه المواضع، وإن شئت بيانا لذلك فراجع قول طرفة :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه   فإن القرين بالمقارن مقتدي

تجد الحكم المعل : " عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه" قد برز في معرض الطلب نهيا وأمرا، كأن المتكلم بذلك قد نزل سامعه منزلة السائل الطالب، أو المتردد الشاك ؛ لما أثارته جملتا الطلب في نفس المتلقى من تساؤل عن سبب هذا النهي الذي جاء الأمر في إثره، فجاءت الجملة التعليلية: " فإن القرين بالمقارن مقتدي " مؤكدة بـ" إن " على وجه الاستحسان ؛ لدفع هذا الشك، وإزالة هذا التردد، وجوابا عما أثاره الطلب السابق في أنفس المستمعين من تساؤل، لكنها اقترنت

(١) كلاسيكيات الشعر العربي . المعلقات العشر د/ صلاح رزق ١/ ٤٨٨ .

بالفاء الدالة على تمحضها للعلية صراحة، المنبئة عن اقتران العلة بالمعلول، وارتباطها به ارتباطا وثيقا .

ولك أن تراجع قول عمرو بن كلثوم :

.... متى كنا لأمك مقتوينا

فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا

وقول عنترة :

أثني علي بما علمت فإنني سهل مخالطتي إذا لم أظلم

وكذلك قول لبيد :

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها

فإنك تجد الجملة التعليلية في قول عمرو " فإن قناتنا يا عمرو أعيت ....." قد سبقت بالاستفهام : " متى كنا لأمك مقتوينا " الذي خرج مخرج الإنكار والتوبيخ ،والزجر والتعنيف أن تكون بنو تغلب خداما لأم عمرو بن هند ملك الحيرة .

وسبقت الجملة التعليلية في قول عنترة " فإنني سهل مخالطتي إذا لم أظلم " بالأمر في قوله " أثني علي بما علمت " الذي خرج مخرج الإلهاب والتهييج، إن كان المخاطب به هو المحبوبة، أو التوبيخ و التبكيت، إن كان المخاطب به القبيلة(١) ؛ بقرينة قوله : " بما علمت " في كل .

كما سبقت الجملة التعليلية في قول لبيد : " فإنما قسم الخلائق بيننا علامها " بأمر مخاطبه بالتحلي بالقناعة في قوله : " فاقنع بما قسم المليك "، الذي بنى عليه بعض الشراح أن المخاطب به خصم ، أو عدو، أو منازع(٢)، ومن ثم تبدو مناسبة التأكيد للحال في بيت لبيد وفيما سبق من أبيات ظاهرة ؛ فإن إخراج الكلام مخرج الطلب مما يقتضي تقريرا وتوكيدا ؛ لإزالة ما عساه أن يكون قد بدا على المخاطب من أمارات الشك والارتياب .

ومن وجه آخر : فإن دخول الفاء على إن " يضفي على المعنى بعدا آخر من حيث القوة والوكادة ؛ لالتقاء رافدين من روافد العلية، وكل منهما يمنح التعليل من دلالته الوضعية عنصرا دلاليا آخر غير الذي يعطيه الآخر له ؛ فالفاء تشرب التعليل مع التعقيب، مثلما تشرب " إن " التعليل مع التأكيد، فيجمع التعليل المنبعث من "فإن " معنيين آخرين : هما التعقيب والتأكيد"(٣).

وقد تعانق مع الوجه السابق في مضاعفة شبا التوكيد وتوثيق عراه في هذه المواضع ؛ إما مجيء خبر الحرف الناسخ جملة فعلية ذات فعل ماض، كما في قول عمرو بن كلثوم : " فإن قناتنا يا عمرو أعيت ..... " ؛ فإن جملة " أعيت " وما تعلق بها من قيود متممة جاءت في محل

---

(١) ينظر كلاسيكيات الشعر العربي . المعلقات االعشر . د/ صلاح رزق ٤٠٨/١ .

(٢) ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص١٤٤ ، كما ينظر المرجع السابق ٩٠/٢ .

(٣) سبل الاستنباط من الكتاب والسنة . د/ محمود توفيق ص٧٨ ، الطبعة الأولى ٢٠١١م، مكتبة وهبة، القاهرة.

رفع خبر " إن "، وقد أضفى الفعل الماضي على المعنى بعدا دلاليا آخر ؛ من حيث دل على تحقق الإعياء وحصوله في الزمان الماضي، فاجتمع التوكيد المنبعث من " إن " إلى التحقيق الحاصل من صيغة الماضي، فازداد المعنى قوة إلى قوته، وعمقا إلى إيحائه .

والبيت ينبئ عن قوة بني تغلب، وينطق بشدة بأسهم، ويصور عظيم منعتهم، واستعصاء إخضاعهم على كل أحد، مهما امتلك من أسباب القوة والجبروت، وفيه– أيضا – تعريض بعمرو بن هند ملك الحيرة، وتجريح له، وتحقير من شأنه، حين ناداه باسمه مجردا: " يا عمرو " وهو الملك المتوج، والسلطان المبجل.

وإما من دخول " إن " على الجملة الفعلية ذات الفعل الماضي ابتداء، ومن أول الأمر، بعد أن اتصلت بها " ما " الكافة التي هيأتها للدخول على الفعل[١]، وأضافت إليها دلالة القصر والاختصاص، كما في قول لبيد : " فإنما قسم الخلائق بيننا علامها "، وذلك للنداء على تحقق القسمة، والإعلام بحصولها على وجه الجزم والتحقيق، فاجتمع التوكيد المتناسل من دلالة القصر في " إنما " إلى التحقيق الحاصل من دلالة صيغة الزمن الماضي، فازداد المعنى قوة إلى قوته، وازدادت العلة ثباتا و رسوخا، وظهورا ووضوحا .

وإنما قدم لبيد لفظ " الخلائق "[٢] الواقع مفعولا على لفظ " علامها " الواقع فاعلا ؛ للإشارة إلى أن العناية ناظرة إليه، والاهتمام متعلق به ؛ إذ هو موطن الفخار، ومناط العزة والعظمة .

كما أن في تقديمه – من وجه – احترازا عن عود الضمير إليه وهو متأخر في اللفظ والرتبة، ومراعاة – من وجه آخر – لتحقيق نوع من البعد الإيقاعي في القوافي التي بنيت على روى الهاء المشبعة فتحتها ألفا .

وإما من دخولها على الجملة الاسمية التي خلص فيها المسند إليه والمسند لهذا المعنى، وقد سبق تفصيل هذا وتحليله عند تعليل الخصيصة الأولى، وبيان سرها ونكتتها .

أما حيث خلت الجملة التعليلية التي دخلت فيها الفاء، وبرزت في معرض الأسلوب الخبري من المؤكدات ؛ فذلك من شدة ظهورها، وقوة وضوحها، حتى صارت تشبه الحقائق الثابتة، والمسلمات الراسخة التي لا ينازع في صحتها، ولا تحوم حول مضامينها أدنى شائبة من شبهة ،أوشك ، أو إنكار .

فطروق امرئ القيس أمثال عنيزة من النساء الحوامل والمرضعات، وشدة إلهائه إياهن عن أطفالهن الرضع الذين لم يبلغوا الحول بعد في قوله:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع   فألهيتها عن ذي تمائم محول

---

(١) ينظر الكتاب لسيبويه ١١٦/٣ .

(٢) الخلائق : هي الطبائع ، واحدتها خليقة ، وكلك النحائب ، واحدتها نحيبة .ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٥٩٥ .

قد صار ظاهرا معلوما، وخبرا ذائعا مشهور، وبموضع لا تتأتى فيه المنازعة، أو تتلبس به عوامل الشك والريبة.

وإنما خص الحامل والمرضع من بين سائر النساء اللائي فجر بهن؛ لأنه الأبلغ في استنزال عنيزة عن رتبة عنادها، وعن شدة تأبيها عليه، وقوة امتناعها عنه؛ لما علم من فرط عزوف الحامل والمرضع عن الميل إلى الرجال، وشدة انشغالهن بأطفالهن.

وكون قوم لبيد هم السعاة في إصلاح أمر العشيرة إذا حل بها أمر عظيم، وكونهم فوارسها الذين يمنعونها، وحكامها الذين يرجع إلى آرائهم، وكونهم ربيعا في الخصب والنماء لمن جاورهم، ولمن مات عنها زوجها، وكونهم العشيرة التي لا يقدر حاسد أن يبطئ الناس عنهم، بسوء قول منهم، ولا يقدر لائمهم على لومهم من كرمهم في قوله:

فهم السعاة إذا العشيرة أفظعت وهم فوارسها وهم حكامها

وهم ربيع للمجاور فيهم ....

قد نزل – لظهوره ووضوحه، وذيوعه وشهرته – منزلة الحقائق الثابتة التي لا يمارى فيها حاقد مرتاب، أو ينازع فيها منكر جاحد، ومن ثم ساقها خالية من المؤكدات؛ تعليلا لقوله:

وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفى بأعظم حظنا قسامها

وقبل ذلك تجد الأمر في قول عبيد:

فكل ذي نعمة مخلوسها وكل ذي أمل مكذوب

وقوله – أيضا – :

أفلح بما شئت فقد يبلغ بال ضعف وقد يخدع الأريب

حيث خلت الجملة التعليلية في البيت الأول: " فكل ذي نعمة مخلوسها " من المؤكدات ؛ فإن كون كل صاحب نعمة موروثها، حسبما جاءت به الرواية الأخرى(١) مما لا تحوم حوله شبهة، أو ينازع في ثبوته أحد ؛ لجريانه مجرى الحقائق الثابتة والمسلمات المشهورة في الشهرة والذيوع، والظهور والوضوح .

وكذلك الشأن في بلوغ الضعيف – على وجه الندرة والقلة – بضعفه في البيت الثاني – ما لا يدرك القوي بقوته، وانخداع الأريب العاقل عن عقله، فلم يكن هناك من حال شك أو إنكار تقتضي توكيد الكلام وتقريره، أو هكذا نزل المخاطب هذه المنزلة، واعتبر فيه هذا الأمر .

ومن أبرز خصائص بناء الجملة التعليلية التي دخلت فيها الفاء أنها في أكثر مواضعها من شعر المعلقات تقع بعد الطلب أمرا كان أم نهيا، أو بعد الطلب أمرا ونهيا، أو بعد الاستفهام .

ويتجلى بيان ذلك وتفصيله في قول امرئ القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول

---

(١) ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٢٤٨ .

فإنه قد جاء في إثر أمره ونهيه ؛ أمره إياها بالسير وإرخاء زمام البعير، ونهيه إياها عن إبعاده من جناها وورِدها المعلل، في قوله :

فقلت لها سيري وأرخي زمامه   ولا تبعديني من جناك المعلل

وفي قول طرفة : " فإن القرين بالمقارن مقتدي " فإنه وقع في إثر الطلب نهيا وأمرا في قوله: "عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه " .

وفي قول عبيد " فقد يبلغ بالضعف وقد يخدع الأريب "، وفي قول عنترة: "فإنني سهل مخالطتي إذا لم أظلم "، وقول لبيد " فإنما قسم الخلائق بيننا علامها " تبصر كلا منها قد وقع في إثر الأمر على وجه الخصوص ،فقول عبيد وقع في إثر الأمر بالعيش كيفما يشاء من دون مبالغة: " أفلح بما شئت "، وقول عنترة وقع في إثر أمره محبوبته أو قبيلته بالثناء عليه وامتداحه بما علمت من خلاله وشمائله: " أثني علي بما علمت " وجاء قول لبيد في إثر أمره خصمه بالقناعة بما قسم الله – تعالى –: " فاقنع بما قسم المليك " .

وعد إلى قول عمرو بن كلثوم : " فإن قناتنا يا عمرو أعيت ..."، فإنك تراه وقد وقع في إثر الاستفهام الإنكاري في قوله : " متى كنا لأمك مقتوينا "، أي : خداما وحشما(١).

ووقوع الجملة التعليلية المقترنة بالفاء بعد الطلب مباشرة له سره ، وله نكتته التي تتمثل في المبالغة في تقرير الطلب وتوكيده، وتحقيقه وتشديده ؛ لدلالة الفاء على أن التعليل الآتي بعدها يترتب على المعلول قبلها، ويرتبط به ارتباطا وثيقا، ويشكل نتيجة حتمية لمقدمات افترضت، وسبق تأسيسها ، وهذا يمنح الطلب الذي تقدمها ملامح الحكم الموجب التسليم به، والإذعان لمقتضاه، مقترنا بالرضا النفسي، والإقرار المبرأ مما يشوب النفس من كدر أو سخط .

ومن وجه آخر: فإن اقتران العلة بالطلب على هذا النحو السابق يخرجه مخرج الدعوى، ويبرزه في صورة قضية مصحوبة بدليل صدقها، مقترنة ببرهان صحتها؛ فإن علة الحكم هي دليله المصحح له، والمقتضى له في العقل والمنطق، وهذا أدعى إلى تقريره وتوكيده، وحث النفوس على قبوله، وسرعة امتثاله

وبرهان هذا التحليل من تضمن الطلب السابق على الجملة التعليلية، وتلبسه في كثير من المواضع بما يثير الدهشة والتعجب، ويدعو إلى الاستغراب، وبما يلفه من قدر من الغموض والإبهام الشفيف الذي يحرك في النفس نوازع الشوق والتطلع إلى الوقوف على ما يزيل هذا الغموض ويوضح هذا الإبهام، ويكشف عن أسباب الطلب وبواعثه .

وتبيان ذلك أن تنظر في قول عمرو بن كلثوم في خطاب عمرو بن هند ملك الحيرة : " متى كنا لأمك مقتوينا " الذي خرج الاستفهام فيه مخرج الإنكار والتوبيخ لعمرو بن هند على موقفه من الشاعر وقومه، وعلى وجه فيه تصريح وتجريح، وزجر وتعنيف، وهذا من شأنه أن يثير في النفس بواعث التعجب والاستغراب، ويقذف في الوجدان بوادر الشك والريبة ؛ إذ العادة جرت في خطاب

(١) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٤٠٣ .

الملوك على التلطف في القول، والملاينة في الخطاب ؛ استجلابا لرضاهم، أو احترازا عما يثير حفيظتهم، ويهيج غضبهم وانفعالهم، كأن الشاعر لا يأبه بعمرو، ولا يقيم له وزنا، أو يراعي له اعتبارا، وهذه دعوى عريضة تقتضي ما يعضدها وتطلب ما يثبت صحتها ؛ لذا جاءت الجملة التعليلية المقترنة بالفاء في إثرها سراعا : " فإن قناتنا يا عمرو أعيت ...." لتقيم الدليل على صحتها، وتنصب البرهان على صدقها، فتزول أسباب الغربة، ويبطل وجه التعجب .

وأن تنظر في قول عبيد " أفلح بما شئت " فإن هذا الطلب الذي صدر به البيت هو موطن الغرابة، ومثير التعجب ؛ إذ هو في الأصل علة لا معلول، وكأنما يشير الشاعر بهذا الترتيب الذي اصطنعه إلى أن النواميس المطردة قد تتخلف عن قاعدتها في الاطراد، وكأنما يلوح بهذا الإيقاع الغريب إلى حتمية بلوغ الفلاح، وإن بدت أسبابه غير مكتملة، وعلى غير وفق السنن والنواميس، ومن هنا تبدو ملاءمة الجملة التعليلية : " فقد يبلغ بالضعف وقد يخدع الأريب "ومناسبتها في موقعها ظاهرة، وما يقع على عاتق الطرف المخاطب فقط هو توظيف أقصى مقومات الإمكان الذاتي، والتحلي بالإصرار، والتدرع بالعزيمة الصلبة والإرادة القوية .

وأن تنظر في قول عنترة : " أثني علي بما علمت " فإن طلب الثناء عليه من محبوبته لمما يجري على خلاف العادة في خطاب المحبين، فاقتضى ما يقرره ويؤكده، ويزيل غربته ووحشته، فجاءت الجملة التعليلية مقترنة بالفاء " فإنني سهل مخالطتي إذا لم أظلم " تعجيلا بتحقيق هذه الغاية، وامتثال هذا الطلب الغريب .

وكذلك تجد الشأن نفسه في قول امرئ القيس :

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعديني من جناك المعلل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ....

وكذلك قول طرفة :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فإن القرين بالمقارن مقتدي

وقول لبيد :

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها

فإن الحكم السابق على الجملة التعليلية في هذه المواضع، والماثل في الطلب أمرا ونهيا، أو نهيا وأمرا، كما في بيتي امرئ القيس، وبيت طرفة، أو أمرا فقط كما في بيت لبيد لمما يثير في أنفس المتلقين نوازع الشوق وهواتف الوجدان للوقوف على سبب الحكم وعلة الطلب ؛ إما لما يتعلق به من وجه غرابة، كما في بيتي امرئ القيس، وإن كان دون ما سبق في الظهور والوضوح، وإما لما يكتنفه من نوع غموض وإبهام شفيف تترقب معه النفس البيان، وتتطلع إلى الإيضاح، كما في بيتي طرفة ولبيد، عندئذ تأتي الجملة التعليلية في كل هذه المواضع : " فمثلك حبلى – فإن القرين – فإنما قسم الخلائق " لتبدد هذه الحجب، وتزيل من حول هذه الأحكام أسباب الشك، وبواعث الاستغراب، وظلال الغموض .

وأما حيث لم تقع الجملة التعليلية المقترنة بالفاء في إثر طلب، كما في المواضع السابقة فذلك يرجع إلى طبيعة المعنى والغرض المقصود، ويرتد إلى ملابسات المقام المصور، وقد جاء ذلك في موضعين اثنين فقط، الأول : في معلقة عبيد :

أَو يَكُ أَقفَرَ مِنها جَوُّها وَعادَها المَحلُ وَالجُدوبُ

فَكُلُّ ذي نِعمَةٍ مَخلوسها وَكُلُّ ذي أَمَلٍ مَكذوبُ

والثاني : في معلقة لبيد :

وإذا الأمانةُ قُسِّمَتْ فِي مَعْشَرٍ أَوْفَى بِأَعظَمَ حَظِّنَا قُسَّامُهَا

فهم السعاة إذا العشيرة أفظعت ....

فإن المقام في أبيات لبيد يقتضي أن يبرز المعلول : " وإذا الأمانة قسمت في معشر......" في صورة الخبر في الظهور والوضوح، والشهرة والذيوع، دون الإنشاء ؛ إذ هو مقام فخر، واعتدادٍ بمآثر القوم ومحامدهم، وإخراج المعل مخرج الطلب، يجعله بمعرض من الشك والتردد، وبموضع من الإنكار والجحد، أو بحال ينزل بسببها هذه المنزلة ؛ لعدم ظهوره ووضوحه، وذيوعه وانتشاره، وهو ما يتنافى ومقام الفخر، ولا يتطابق مع حال الزهو والانتشاء بمآثر القبيلة وأمجادها .

وتأكيد هذا من تنوع الجمل المعلل بها، وتعددها علي وجه العطف : " فهم السعاة – وهم فوارسها – وهم حكامها – وهم ربيع للمجاور – وهم العشيرة " وذلك على نحو ينبئ عن أن الشاعر قد أفعمت نفسه بمعاني الفخر، وتشبع وجدانه بمشاعر الزهو بمحامد القبيلة ومكانتها .

والمقام في أبيات عبيد يصور في المعلول أمرا واقعا ثابتا، وحقيقة شاخصة ماثلة رأي عين، وهي خلو ديار الأحبة التي وقف أمامها الشاعر متصابيا متهالكا، باكيا من خلوها من أهلها، وإقفار جوها منها، وعود القفر والجدب إليها، ومن ثم بدا هذا الحكم المعلل " فلا بدئ ولا عجيب " واقعيا، لا تحوم حوله شبهة، ولا تشوبه شائبة، فخلو الديار وإقفارها على هذا النحو المفصل سنة مطردة، وناموس لا يتخلف، فليست بأول ما خلا من الديار، ولو أخرج الشاعر الحكم المعلل مخرج الطلب لما تطابق مع هذه الحال، ولما توافق مع هذه الحقيقة الشاخصة نصب عينيه ؛ لأنه يجعلها بمعرض من الارتياب والشك، وذلك على نحو ما سبق تفصيله في أبيات لبيد ؛ لذا جاءت الجملة المعلل بها في كل : " فهم السعاة ...... – فكل ذي نعمة ..... " لتختم على الحكم في الموضعين، وتزيده تقريرا وتوكيدا، وتثبيتا وتمكينا .

ومن أبرز خصائص بناء الجملة التعليلية التي دخلت فيها الفاء أنها تخرج في أكثر مواضعها من شعر المعلقات، وتبرز في معرض التذييل الجاري مجرى المثل ؛ لإمكان استقلاليتها بالإفادة عما جاءت مقررة ومؤكدة لمضمونه، ولك أن تراجع قول طرفة: " فإن القرين بالمقارن مقتدي " لتقف على صحة هذه النتيجة ووجاهتها، فقد جاءت الجملة التعليلية السابقة في موضعها تذييلا مقررا ومؤكدا لمضمون الطلب السابق نهيا وأمرا في قوله: " عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه

" فإن مضمونهما واحد، ومعناهما متقارب، وقد جرت مجرى المثل ؛ لإمكان استقلاليتها بالإفادة، فيقال في مضارب مشابهة : " إن القرين بالمقارن مقتدي ".

ولك أن تراجع قول عبيد " فكل ذي نعمة مخلوسها ....." وقوله – أيضا :"فقد يبلغ بالضعف وقد يخدع الأريب "، ولك أن تراجع قول لبيد " فإنما قسم الخلائق بيننا علامها "، وقوله – أيضا – : " فهم السعاة إذا العشيرة أفظعت "، فإنك تجد كل واحدة من هذه الجمل المعلل بها قد جاءت في موقعها تذييلا مقررا ومؤكدا لمضمون ما قبله، وعلى نحو يجري مجرى المثل ؛ لإمكان استقلاليتها بالإفادة ؛ لعمومية الدلالة واتساعها، فقول عبيد : " فقد يبلغ بالضعف، وقد يخدع الأريب " جاء تذييلا مقررا ومؤكدا للطب السابق عليه في قوله : " أفلح بما شئت "؛ لأن مضمونهما واحد، وقول لبيد: " فإنما قسم الخلائق بيننا علامها " جاء هو الآخر تذييلا مقررا ومؤكدا للطلب المتقدم عليه – أيضا – : " فاقنع بما قسم المليك" وعلى نحو يجري مجرى المثل لإمكان استقلاليته بالإفادة، فيقال في مضارب مشابهة " إنما قسم الخلائق بيننا علامها "، كما كان الشأن في قول عبيد، فيقال في مضرب مماثل: " قد يبلغ بالضعف وقد يخدع الأريب " وهكذا يمكن قياس الموضعين الآخرين .

حتى قول امرئ القيس : " فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ......" يصلح أن يكون من هذا القبيل الذي يجري فيه التذييل مجرى المثل ؛ لإمكان استقلاليته عن الطلب السابق عليه في قوله: " فقلت لها سيري .... " فيقال لمن تأبت على محبوبها، وامتنعت منه، ونفرت عن قربه : " فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع .... " ويكون سائغا مقبولا .

وقد تجئ الجملة التعليلية في مواضع أخرى قليلة في موقع التذييل المقرر لمضمون ما قبله، لكنها لا تجري كسابقتها مجرى المثل، ولا تصلح أن تقال في مضارب شبيهة، لعدم إمكان استقلاليتها بالإفادة ؛ لشدة ارتباطها بما قبلها، وقوة تعلقها به، وقد جاء ذلك في موضعين اثنين، الأول : قول عمرو بن كلثوم :

فإن قناتنا يا عمرو أعيت   على الأعداء قبلك أن تلينا

والثاني : قول عنترة : " فإنني سهل مخالطتي إذا لم أظلم "

حيث جاءت الجملة التعليلية في قول عمرو تذييلا مقررا ومؤكدا لمضمون قوله: " متى كنا لأمك مقتوينا"، وجاءت في قول عنترة تذييلا مقررا ومؤكدا لمضمون قوله : " أثني علي بما علمت " إلا أنها في الموضعين لا يمكن أن تستقل عن الجملة المعلة بالإفادة ؛ لتوقف فهم معناها عليها .

وإنما خرجت الجملة التعليلية فيما سبق مخرج التذييل ؛ لأنه الذي يحقق – أولا– نوعا من تناغي الخصوصيات في نسق الكلام، خصوصية التعليل، وخصوصية التذييل ؛ إذ يتعانقان على تقرير المعنى، وتصوير الغرض ؛ لما في التذييل من تكرار المعنى وإعادته، ولما في التعليل من دلالة على صحة الحكم المعل، واستقامته في العقل والمنطق؛ إذ هو كالدليل عليه، والبرهان المعضد له.

وهو الذي يتحقق به – ثانيا – وجه من أوجه مطابقة الكلام لمقتضى الحال ورعاية المقام، واعتبار خصوصية الموقف وطبيعته ؛ وذلك على النحو الذي سبق تفصيله وتحليله في الخصيصة الثالثة .

على أن من خصائص الجملة التعليلية التي دخلت فيها الفاء بناءها على تقديم المسند إليه في أكثر المواضع، وتبيان ذلك أن تراجع قول طرفة : " فإن القرين بالمقارن مقتدي "، وقول عمرو : " فإن قناتنا يا عمرو أعيت "، وقول عبيد " فكل ذي نعمة مخلوسها وكل ذي أمل مكذوب "، وقول عنترة " فإنني سهل مخالطتي "، وقول لبيد : " فهم السعاة إذا العشيرة أفظعت "، فإنك تجد الجملة في كل ذلك قد بنيت على تقديم المسند إليه، وهو على الترتيب السابق للأبيات في الذكر: "القرين– قناتنا – فكل ذي نعمة – كل ذي أمل – ياء المتكلم – فهم "، وتقدم المسند إليه رغم أنه الأصل في تركيب العبارة ؛ إذ هو المحكوم عليه، والمحدث عنه إلا أن التقديم على هذا النحو مقصود إليه؛ لتحقيق نوع من تناغم الخصوصيات– أيضا – في بناء الكلام، خصوصية التعليل، وخصوصية التذييل، وخصوصية التقديم؛ فإن الغرض من التقديم في كل ذلك هو زيادة تقرير المعنى وتمكينه، وتحقيقه في النفوس وتثبيته؛ إذ المقدم هو محط العناية، وموضع الاهتمام؛ لما في التقديم من التوطئة له، والإعلام به، والتمهيد للحكم عليه.

وقد يفيد التقديم إلى جانب هذا الغرض معانيا أخر تنبثق من طبيعة المقام وخصوصية الموقف، كتفخيم الأمر وتهويله، كما في قول عمرو بن كلثوم : "فإن قناتنا يا عمرو أعيت " ؛ إذ المقام في التهديد والوعيد، وهو مما يقتضي ذلك المعنى ويستلزمه ؛ لأنه أبعث للخوف والفزع، وأدخل للرعب والهلع في قلب الخصم وروع المنازع .

وكتفخيم المسند إليه وتعظيمه، كما في قول عنترة : " فإنني سهل مخالطتي"، وقول لبيد : " فهم السعاة إذا العشيرة أفظعت "، فإن مقام الفخر يتطلب تفخيم الأمر وتعظيمه، وتضخيمه وتكبيره ؛ لقيامه مقام الصدق، ولدلالته على قناعة المتكلم بمعناه، وتشبع وجدانه بمضمونه .

وكقصد العموم والشمول، كما في قول عبيد : " فكل ذي نعمة مخلوسها – وكل ذي أمل مكذوب " ؛ لأنه أسير لحكمته، وأخلد لمعناه .

ولم تبن الجملة التعليلية على تقديم المسند – هنا – إلا في موضعين اثنين، جاء أولهما في معلقة عبيد : " فقد يبلغ بالضعف، وقد يخدع الأريب "، وجاء ثانيهما في معلقة لبيد : " فإنما قسم الخلائق بيننا علامها " ؛ لما تقرر من الأصل في المسند إذا كان فعلا أن يتقدم على فاعله، لكنه جاء في بيت عبيد فعلا مضارعا ؛ للدلالة على أن إدراك الضعيف بضعفه ما لا يدرك القوي، وانخداع الأريب العاقل عن عقله ليس أمرا لازما، ولا صفة ثابتة ؛ وإنما يقع على وجه الندرة أو القلة مرة بعد مرة، وحالا بعد حال ؛ لخروجه عن السنن المعهود، والنواميس المطردة ؛ بقرينة دخول " قد " على الفعل المضارع .

وجاء المسند في بيت لبيد فعلا ماضيا ؛ للدلالة على تحقق القسمة وحصولها على نحو مؤكد، وعلى وجه ينفي الشبهة، ويقطع الخصام ويحسم المنازعة .

وأخيرا : فإن من خصائص بناء الجملة التعليلية في هذه الصورة مجيء المسند في بعض مواضعه منها مفردا، منكرا ومعرفا، ومجيئه جملة في بعضها الآخر، وقد تعلق به في كل بعض القيود المربية للفائدة من الكلام .

أما مجيئه حيث جاء مفردا منكرا فهو الأصل فيه ؛ لأن المتكلم إنما يخبر المخاطب بأمر يجهله، فيعرفه إياه، وقد جاء على هذا النحو في موضعين، الأول : في قول طرفة : " فإن القرين بالمقارن مقتدي " والثاني : في قول عنترة: " فإنني سهل مخالطتي إذا لم أظلم " .

ووراءه في قول طرفة دلالة على أن المسند : " مقتدي " ليس محصورا في المسند إليه، ولا معهودا، بل المراد مجرد الإخبار بالوصف، دون حصره في القرين، ودون كونه اقتداء معهودا، وقدم الجار والمجرور: " بالمقارن " المتعلق به عليه ؛ مراعاة للبناء الإيقاعي، والتناسق الموسيقي في قوافي القصيدة .

ووراءه في قول عنترة نوع من التفخيم والتعظيم، وأن الشاعر بلغ في صفة السهولة حدا لا يدرك شأوه، ولا يكتنه كنهه .

وقرينة هذا من إيثار الإخبار بالمصدر : " سهل "، وتنوينه خاصة؛ للمبالغة؛ وإنما قيد المسند بالشرط " إذا لم أظلم " ؛ تعريضا بالثأر ممن ظلمه، والانتقام منه، واحتراسا ؛ لدفع توهم أن تكون سهولة المخالطة عن ضعف وعجز؛ بدلالة سياق الكلام بعده من قوله :

فإذا ظُلِمتُ فإنّ ظُلْمِي بَاسلٌ   مرٌّ مذَاقَتُهُ كَطَعْمِ العلْقَمِ(١)

وأما مجيئه حيث جاء مفردا معرفا فذلك على خلاف الأصل فيه، وقد جاء على هذا النحو في موضعين اثنين – أيضا –، الأول : في قول عبيد : " فكل ذي نعمة مخلوسها "، والثاني : في قول لبيد " فهم السعاة إذا العسيرة أفظعت "، وإنما أوثر المسند : " مخلوسها " في قول عبيد معرفا بالإضافة إلى الضمير العائد إلى النعمة منكرة ؛ لتخصيص الإخلاس بها، ودفع توهم أن يكون ذلك لصاحبها، وفيه – أيضا – نوع من تفخيم الإخلاس وتهويله ؛ لتوطين النفوس عليه، وتهيئتها له .

وإيثاره معرفا بالألف واللام في لفظ : " السعاة " في بيت لبيد هو الأبلغ في مقام الفخر ؛ لإفادته قصر السعي على قومه دون غيرهم ؛ قصرا ادعائيا؛ للمبالغة؛ لدلالة الألف واللام على كمالهم في هذه الصفة، كأنهم دون غيرهم هم الجديرون باستحقاق هذا الوصف وإطلاقه .

والتقييد بالشرط الذي حذف جوابه ؛ لدلالة الكلام السابق عليه : " إذا العشيرة أفظعت " مما يقتضيه مقام الفخر ؛ لما فيه من المبالغة في كمال المدح ؛ لدلالته على أصالتهم في الوصف وعراقتهم فيه، وثباتهم في المدلهمات وعظائم الأمور .

---

(١) ديوان عنترة ص١٦ .

وأما مجيئه حيث جاء جملة فذلك في موضع واحد هو قول عمرو بن كلثوم : " فإن قناتنا يا عمرو أعيت ...."، حيث جاء خبر الناسخ جملة فعلية ذات فعل ماض، هي قوله : " أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا "، والإخبار بالجملة على هذا النحو السابق هو الذي تتحقق به مطابقة الكلام للمقام الذي جاء في التهديد والوعيد لملك الحيرة عمرو بن هند ؛ فإن أمثال هذه المقامات تتطلب قدرا زائدا من وسائل التقرير والتوكيد، ومن إطناب العبارة الذي ينبئ في هذا المقام عن ثقة المهدد وقدرته على إنفاذ ما هدد به، وإدلائه بقوة موقفه، وشجاعة قلبه، فإن الإخبار بالجملة أقوى وآكد من الإخبار بالمفرد، لاسيما إذا كان الفعل المخبر به ماضيا يدل على تحقق الوقوع وحصوله ؛ لزيادة مبنى الجملة عن المفرد ؛ فإن زيادة المبنى دليل على زيادة المعنى .

وقد كان لتقديم الجار والمجرور والظرف " على الأعداء قبلك " أثر كبير في تعميق المعنى وتقرير المراد ؛ إذ هو الأدخل في هذا المقام، والأبلغ فيه، والأقوى في مجابهة هذا الملك والتصدي له، الأوفى دلالة على جرأة الشاعر وقومه، وفرط شجاعتهم، وشدة بأسهم ؛ لندائه على مجاهرتهم إياه بالعداوة، وإعلانهم الحرب عليه صراحة ؛ ولما فيه – أيضا – من التعريض بالسخرية من هذا الملك والاستهزاء به، كأن الشاعر أراد أن يوجه إليه رسالة يقول فيها : إنك يا عمرو بن هند في موقفك هذا، وفي محاولاتك النيل من مكانتنا من هؤلاء الأعداء الذين جهدوا من قبل في ذلك، فتبددت محاولاتهم المتكررة أمام صلابة قناتنا، ومنعة عزتنا[١].

ومن وجه آخر : فإن التقديم على النحو السابق هو الذي يتحقق به تناسق الإيقاع، وتوافق النغم في قوافي القصيدة التي بنيت على روى النون المشبعة فتحتها ألفا .

والمفعول المؤخر وهو المصدر المؤول من " أن " وما دخلت عليه " أن تلينا" ترشيح للاستعارة في لفظة " قناتنا "، حيث شبه أنفتهم وعزتهم وكبريائهم بقناة الرمح الصلبة في استعصائها وصلابتها، وشبه محاولات الأعداء النيل من هذا الإباء بمحاولات من يروم ثني القناة، أو التحكم في وجهتها، ولأن النتيجة في الحالين واحدة وهي الإباء والاستعصاء ساغ له أن يقول : إن قناتنا لا تلين أمام المحاولات المتكررة من جانب العداء لإخضاعها وتوجيهها[٢].

---

(١) ينظر كلاسيكيات الشعر العربي . المعلقات العشر ، دراسة في التشكيل والتأويل ، د/ صلاح رزق ٢٧٧/٢ .

(٢) ينظر المرجع نفسه ٢٧٧/٢ .

" المحور الثالث "

" خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بـ" إذ "

يعد التعليل من أبرز المعاني التي ذكرها النحويون ل " إذ "، واستشهدوا لذلك من فصيح الكلام بأمثلة ليست ببعيدة عمن يريد مراجعتها في مظانها من كتب النحو(١) .

والذي ينظر في شعر المعلقات يرى أن دخول " إذ " في صدر الجملة التعليلية قد ندر إلى حد كبير ؛ حيث لم يتجاوز موضعين اثنين فقط، جاء أولهما في قصيدة النابغة في قوله:

فَعَدِّ عَمّا تَرى إِذ لا اِرتِجاعَ لَهُ   وَانمِ القُتودَ عَلى عَيرانَةٍ أُجُدِ(٢).

وجاء ثانيهما في معلقة لبيد في قوله :

لا يَطبَعونَ وَلا يَبورُ فَعالُهُم   إِذ لا تَميلُ مَعَ الهَوى أَحلامُها (٣) .

ودخول " إذ " في صدر الجملة التعليلية في الموضعين السابقين له أثر كبير في تقرير المعنى والغرض، وتعميق المقام وتصويره ؛ لما يتلبس بها – إلى جانب دلالة التعليل السابقة – من عناصر المفاجأة والمباغتة التي تمتع النفس، وتذكي الحس والشعور، وتثير الوجدان إلى تتبع المقصود، والوقوف على الغرض .

والذي يبحث في خصائص الجملة التعليلية في هذه الصورة يجد أن أبرز خصائص بنائها هو دخول " إذ " على حرف النفي " لا " في صدر الجملة في الموضعين : " إذ لا ارتجاع له – إذ لا تميل مع الهوى أحلامها " .

ودخول " إذ " على حرف النفي في الموضعين السابقين هو الذي يقوي من وقع المفاجأة في الكلام، ويعمق من أثرها في النفس، ويعظم من قدرها في القلب؛ لاجتماع رافدين من روافد الإيقاظ والتنبيه في صدر الجملة .

وهو الذي يزيد المعنى تقريرا وتوكيدا، وتثبيتا وتمكينا ؛ لوكادة النفي بـ" لا" – أولا – ؛ بدلالة وقوعها في جواب القسم، كما في قوله – سبحانه – : " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم " [النساء:٦٥] (٤).

ولطول النفي بها – ثانيا – ؛ إذ تنفي المستقبل المتطاول غالبا ؛ لوجود الألف في آخرها، وهو حرف يطول فيه النفس، فناسب طول المدة(٥) .

---

(١) ينظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ص١٨٨ ، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ٨١/١ .

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص١٦ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الرابعة ٢٠١٧م ، دار المعارف – مصر .

(٣) ديوان لبيد ص١١٦.

(٤) ينظر الأشباه والنظائر للسيوطي ٩/٣-١٠ ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٥) ينظر بدائع الفوائد لابن القيم ٩٥/١-٩٦ ، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ٤٢٠/٢-٤٢١ ، الطبعة الأولى ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، وهمع الهوامع للسيوطي ٤/٢ .

وإنما اختص حرف النفي بالدخول على الجملة الاسمية في موضع النابغة : "إذ لا ارتجاع له"؛ لأن الحكم بقطعية انتفاء رجوع ما قد فات من الحقائق الثابتة، والمسلمات الراسخة التي لا تقبل التبديل أو التغيير، ولا تحوم حولها الشبهات، ولا يعتريها الشك أو التردد، والجملة الاسمية بما تختص به من دلالة الثبوت والدوام هي الأوفى بتقرير هذا الحكم، الأقدر على تصوير المعنى المراد .

ولأن القصد إلى عموم النفي وشموله هو الذي يقتضيه مقام التسلية، وتدعو إليه حال الضيق بسبب الحزن ؛ بقرينة نفي الارتجاع نفي الجنس : " إذ لا ارتجاع له " ؛ وذلك قطعا للأمل من رجوع ما قد فات، وصبرا على الجزع، وتخفيفا من وطأة الحزن الجاثم، وهدهدة لمشاعر التوتر والانفعال، والقلق والاضطراب المسيطرة على نفس الشاعر من وقوفه على خراب الدور، وارتحال الأحبة عنها .

ودخول حرف النفي على الفعل المضارع في بيت لبيد : " إذ لا تميل مع الهوى أحلامها " المعلل به قوله : " لا يطبعون ولا يبور فعالهم " المكني به عن طهارة أعراضهم وبقاء صنيعهم ومعروفهم هو الذي يقتضيه مقام الفخر بالعشيرة والقوم، ويتطابق مع مقتضى حاله في الامتلاء والإنتشاء ؛ لدلالته على انتفاء ميل أحلام القوم وعقولهم مع الهوى في الحال والاستقبال، مع تجدد موجباته، وتكرر أسبابه حالا بعد حال ووقتا بعد وقت، وذلك على خلاف مذهب الجمهور في أن " لا " تخلص المضارع للاستقبال[1] دون الحال، بقرينة الاستعمال الفصيح الكثير في القرآن من استعمالها في الدلالة على الحال، وبقرينة أو ليتها في النفي ؛ إذ هي أقدم حروف النفي في العربية، فكانت دلالتها عامة ابتداء[2]، وهذا – لا شك – أبلغ في المدح، وأدخل في باب الفخر ؛ لندائه على رجاحة عقول القوم، وفرط تعهدهم أخلاقهم مرة بعد مرة، وحالا بعد حال .

على أن الذي يتأمل الجملة التعليلية في موضعيها السابقين يجد أن من أبرز خصائص بنائها مجيئها مفصولة غير معطوفة، كأنها جواب عن سؤال أثارته الجملة المعلة السابقة عليها، وإن كان دخول " إذ " في صدرها جعلها نصا صريحا في العلية .

وتأكيد هذا من وقوع الجملة التعليلية في إثر الطلب الذي برز في صورة الأمر، وهذا ظاهر جلي في بيت النابغة " فعد[3] عما ترى "، أو بعد ما يشبه الطلب، وهو النفي في بيت لبيد : " لا

---

(١) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ٢٤٤/١ .

(٢) ينظر التطور النحوي للغة العربية لبرجشتراسر ص١١٥ ، مطبعة السماح ١٩٢٩م ، ومعاني النحو للدكتور فاضل صالح السامرائي ص ٣٦٣ .

(٣) فعد، أي: جزه وانصرف عنه. ينظر شرح القصائد العشر للتبريزي صـ٤١٧.

يطبعون[١] ولا يبور[٢] فعالهم " ؛ حيث أثار الأمر في بيت النابغة " فعد عما ترى " في نفس المتلقي تساؤلا عن علة الأمر وسببه، كأنه قيل : لماذا طلب الشاعر من مخاطبه تجاوز ما يراه من خراب دور الأحبة، وعدم التعلق بما قد فات ؟ وأثار النفي في قول لبيد " لا يطبعون ولا يبور فعالهم " في نفس الملتقى – أيضا – فيضا من التساؤلات والاستفسارات عن سبب النفي وعلته، كأنه قيل : لماذا لا يصيب أعراضهم وأخلاقهم ما يدنسها ؟ ولماذا لا يهلك صنيعهم أو معروفهم ؟ فجاءت الجملة التعليلية في الموضعين للوفاء بحاجة المعنى، وتلبية متطلبات الوجدان في الشوق واللهفة العارمة، وازداد المعنى – بدخول " إذ " الذي خلص الجملة للعلية – تقررا وتأكدا، وثبوتا وتمكنا .

وأخيرا فإن من أبرز خصائص بناء الجملة التعليلية الجديرة بالرصد والتسجيل في هذه الصورة – أيضا – هو بروزها في صورة الخبر المنفي الخالي من جميع المؤكدات، مع تقدم ما يقتضي التأكيد، ويدعو إليه، وقرينة هذا من تقدم الطلب في بيت النابغة : " فعد عما ترى " أو من تقدم ما يشبهه، وهو النفي في بيت لبيد " لا يطبعون ولا يبور فعالهم " ؛ إذ ينبئ هذا وذاك عن أن المخاطب قد صار في حكم السائل الطالب الذي داخله شيء من الشك أو التردد، فهو يطلب ما يزيل من نفسه هذه الهواجس، ويمحو من وجدانه هذه النوازع، أو منزل هذه المنزلة، لكن المتكلم لم يعتبر هذه الحال، ولم يلتفت إليها، فألقى الكلام على عواهله خاليا من جميع المؤكدات، كأن المتكلم يعرض – على ألطف وجه – بمخاطبه، ويسجل عليه هذا الموقف الذي لا ينبغي ؛ إذ لا وجه لتردده وشكه، ولا داعي لسؤاله وطلبه، أو هكذا اعتبر المتكلم في مخاطبه هذه الحال، لأن ما حوته الجملة التعليلية من مضمون ليس بمعرض من الشك والتردد، أو بموضع من السؤال والطلب، إما لكونه من الحقائق الثابتة، والمسلمات الراسخة التي لا يعتريها الشك، ولا تحوم حولها الشبهات، كما في قول النابغة : " إذ لا ارتجاع له "، وإما لقوة ظهوره، وشدة وضوحه، وفرط ذيوعه وانتشاره، كما في موضع لبيد : " إذ لا تميل مع الهوى أحلامها " .

وإنما أنث لبيد الضمير المضاف إلى المسند إليه في كلمة " أحلامها " – من وجه – مع كونه للمذكر ؛ بقرينة قوله في الشطر الأول : " لا يطبعون ولا يبور فعالهم : ؛ لأنه عاد به – أولا – إلى العشيرة أو القبيلة[٣].

---

(١) لا يطبعون معناه: لا تدنس أعراضهم، والطبع الدنس، يقال: طبع السيف إذ دخله الجرب من شدة الصدأ، وطبع الرجل فهو طبع، إذا أتى عيبًا. ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٥٩٣–٥٩٤، واللسان طبع ٢٦٣٥/٤ .

(٢) لا يبور فعالهم، أي لا يهلك صنيعهم، يقال: قد بار الطعام إذا كسد وهلك. ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٥٩٤ ، واللسان بور ٣٨٥/١ .

(٣) ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٥٩٤ .

ولأنه الذي يحصل به – ثانيا – تناغم الجرس، وتناسق الإيقاع في قوافي القصيدة .

ووحده – من وجه آخر – مع أنه يعود إلى الجماعة ؛ لأنه الأبلغ في مقام الفخر ؛ لما فيه من كمال المدح، ونهاية الثناء ؛ لدلالته على استواء القوم في رجاحة الفهم ورزانة العقول، وعدم التفاوت بينهم في ذلك، حتى كأن القبيلة كلها قد صارت في هذا الوصف على رجاحة عقل واحد .

وقدم الظرف المضاف : " مع الهوى " على الفاعل : " أحلامها " تعجيلا بتنزيههم عما يشين فعالهم، وتبرئتهم مما يسئ إلى أخلاقهم، ومراعاة لتوافق النغم، واطراد الإيقاع في قوافي القصيدة .

والجملة كلها خرجت مخرج التذييل المقرر لمضمون الجملة المعلة السابقة عليها، والمؤكد له، إلا أنه لا يجري مجرى المثل ؛ لشدة ارتباطه بما قبله، وعدم إمكان استقلاليته بالإفادة عنه.

" المحور الرابع "

" خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بـ"كي "

"كي" أصل في الدلالة على التعليل ؛ إذ هو أبرز معانيها وأشهر دلالالتها، وأكثرها دورانا في الكلام العربي، وإن ذكر بعضهم أنها تحمل على اللام في هذا المعنى(١).

ودخول " كي " في بنية الجملة التعليلية في شعر المعلقات نادر الوجود جدا، وبرهان هذا من عدم وقوف البحث على شاهد له إلا في موضع واحد، جاء في قول النابغة الذبياني من معلقته : وقال أيضاً:

وَقَفتُ فيها أُصَيلاً كي أُسائِلَها عَيَّت جَواباً وَما بِالرَبعِ مِن أَحَدِ(٢) .

والذي يتأمل في الجملة التي وقعت " كي " في صدرها، وهي قولها : " كي أسائلها " يجد أنها خرجت مخرج العلة والسبب في قوله : " وقفت فيها أصيلا " الذي أثار في نفس السامع – بما يلفه من إبهام شفيف، وبما فيه من نوع غرابة نشأت من وقوف الشاعر على دار مية، مع خلوها من أهلها، وطول الأمد عليها، وعلى رحيل الأحبة منها – تساؤلا عن سبب الوقوف في عرصاتها وقت الأصيل، وحرك لواعج شوقه لمعرفة العلة والسبب من وراء ذلك، فجاءت الجملة التعليلية مفصولة غير معطوفة لتجيب عن هذا المقدر وقوعه في أنفس المستمعين، إلا أن دخول "كي " فيها جعلها نصا صريحا في التعليل، وغرضا أصيلا فيه، وهذه إحدى أبرز خصائص بناء الجملة التعليلية في هذه الصورة .

على أن الذي ينظر في بنية الجملة التعليلية – ههنا – مرة أخرى يرى أن دخول " كي " على الفعل المضارع: " أسائلها " هو أبرز خواصها التركيبية في هذه الصورة – أيضا – وذلك إلى جانب أنه الأصل المطرد فيها، أو الغالب من شأنها؛ لدلالتها على العاقبة(٣) التي تستلزم الاستقبال الذي تناسبه صيغة المضارع إلا أنه الذي يتناغى – من وجه – مع غائية العلة وحصولها – في الغالب – مستقبلا ؛ لدلالة الفعل المضارع على الاستقبال، والحصول في الزمن المستقبل، وبهذا تتعانق دلالات الخصوصيات في نسق الكلام وبنيته .

كما يتعلق به – من وجه آخر – كثير من الأسرار والنكات البلاغية التي لا يمكن أن يسد غيره في موضعه مسدها في الدلالة عليها ؛ إذ يصور الفعل المضارع حالة الطيش والذهول، والحيرة والاضطراب التي تملكت على الشاعر مشاعره، وسيطرت على انفعالاته حيال دار مية التي درست معالمها، وطال الأمد على خلوها من أهلها ؛ لدلالته على حصول التساؤل وتكرره مرة بعد مرة، وحالا بعد حال، فكلما تماسكت نفسه، وكلما تمكن من ضبط مشاعره، والسيطرة على انفعاله عاوده الطيش والذهول، وتملكته الحيرة والاضطراب، فعاود السؤال مرة أخرى .

---

(١) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ١٨٢/١ ، والهمع للسيوطي ٥/٢ .

(٢) ينظر شرح القصائد العشر للتبريزي ص٤١٥ .

(٣) ينظر لسان العرب كي ٣٩٧١/٥ .

وقد كان لإيثار صيغة المضارع من مادة المفاعلة خاصة نوع كبير في إضفاء نوع من الحياة والحركة في هذه الدار، وبعث الروح بين جنباتها، وفي عرصاتها، على الرغم من دروس معالمها، وبعد ارتحال أهلها عنها، وهذا يصور – من وجه – شدة تعلق الشاعر بهذه الدار، وفرط حبه لساكنيها .

ويصور – من وجه آخر – تعاظم رجائه في تفاعلها معه، وجوابها عن سؤاله، وإخبارها بأحوال الأحبة، لكنها مع كل هذا عجزت عن الكلام، وضنت بالجواب: " عيت جوابا وما بالربع من أحد " .

والوقوف مع الديار وخطابها وسؤالها يجري في الشعر العربي عامة، والجاهلي منه خاصة على نحو مطرد، وقد خرج – في غالبه – مخرج الاستعارة المكنية التي تبعث في الجمادات الحياة والحركة، وتنفخ فيها الروح، فترى الشاعر يفرغ عندها آلامه وأحزانه، وآهاته وأناته، ويبثها شكواه، وكأنها حركة شعورية يخفف بها الشاعر شيئا مما ينوء به كاهله، ويشفي بها لوعة شوقه، ويطفئ بها حرارة وجدانه التي شفت قلبه، وأضنت فؤاده، وأنحلت جسده، وأوهنت عزمه وقواه.

وحين نراجع العلة والمعل: "وقفت فيها أصيلا – كي أسائلها " بالتأمل مرة أخرى يتبدى للبحث أن الشاعر قد صاغهما صياغة خبرية، وعلى نحو خال من جميع المؤكدات، وما أظن الشاعر – بإخراج كلامه هذا المخرج – قد عنى بالحديث مع مخاطب خالي الذهن من التردد في الحكم والشك فيه، أو مع مخاطب منكر، أو منزل هذه المنزلة، فصاغ عبارته هكذا خالية من المؤكدات، وعلى نحو مقتضب بناء على هذه الاعتبارات، وإنما رمى من وراء ذلك إلى تصوير حال نفسه، ومراعاة مقتضى ذاته، وكأن الشاعر بإرسال العبارة على هذا النحو إنما يجسد حال الإعياء والجهد التي ألمت به، ويصور شدة الضعف والوهن التي لحقت به لما وقف أمام دارمية، وقد أصابها الدروس، وخلت من أهلها، وطال عليها أمد الزمان، فلم يقو على الاحتشاد، ولم يقدر على الاسترسال .

ثم إن المقام مقام ضيق بسبب الحزن على دروس الدار وارتحال الأحبة عنها، وتلك مقامات تجنح النفس فيها إلى الإيجاز واختزال العبارة؛ للإعلان عن ضيقها، وشدة تبرمها بالأمر، وفرط انكفائها على أحزانها وأتراحها، وآلامها وأوجاعها .

وقرينة هذا التحليل وتأكيده من حذف متعلق الفعل الذي دخلت عليه " كي "؛ إذ أصل العبارة أن يقال : " كي أسائلها عن الأحبة "، فإن الحذف من العبارة على هذا النحو لمما ينبئ عن هذا الضيق، ويعكس هذا التبرم والتضجر.

ومن ذكر دار مية في الجملة ذاتها بضمير الغيبة الراجع إليها في قوله: "أسائلها"، دون النص على اسمها صراحة كما في البيت الأول من المعلقة: " يا دار مية "، حتى لا يكون ذلك باعثا لأحزانه، ومشيرا لأشجانه .

ومن نسق البيت بعد ذلك في قوله : " عيت جوابا وما بالربع من أحد " فقد زاده إعياء الدار عن الجواب، وخلو الربع من ساكنيه إعياء على إعيائه، وضعفا ووهنا على ضعفه ووهنه .

" المحور الخامس "

" خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالمصدر المنصوب"

للجملة المعللة بالمصدر حظ لا بأس به من شعر المعلقات، حيث جاء معللا به في عشرة مواضع، كان لمعلقة طرفة نصيب الأسد منها؛ إذ بلغ عدد مواضعه فيها ستة، هي على النحو الآتي:

٣٦- وَإِن شِئتُ سامى واسِطَ الكورِ رَأسُها وَعامَت بِضَبعَيها نَجاءَ الخَفَيدَدِ [١].

٣٨- وَإِن شِئتُ لَم تُرقِل وَإِن شِئتُ أَرقَلَت مَخافَةَ مَلويٍّ مِنَ القَدِّ مُحصَدِ[٢]

٤١- وَجاشَت إِلَيهِ النَفسُ خَوفاً وَخالَهُ مُصاباً وَلَو أَمسى عَلى غَيرِ مَرصَدِ[٣].

٤٥- وَلَستُ بِحَلّالِ التِلاعِ مَخافَةً وَلَكِن مَتى يَستَرفِدِ القَومُ أَرفِـــــدِ [٤] .

٦١- فَذَرِينِي أُرَوِّي هَامَتِي في حَيَاتِهَا مخافةَ شِرْبٍ في الحياةِ مُصَرَّدِ[٥] .

٩٩- وَيَومٍ حَبَستُ النَفسَ عِندَ عِراكِهِ حِفاظـــــاً عَلى عَوراتِهِ وَالتَهَدُّدِ[٦] .

وجاءت معلقة عمرو بن كلثوم في المرتبة الثانية من حيث عدد المواضع بعد معلقة طرفة، حيث اشتملت على موضعين اثنين من هذه المواضع، وذلك على النحو الآتي:

٤٠- نَصَبنَا مِثلَ رَهوَةَ ذاتَ حَدٍّ مُحافَظَةً وَكُنّا السابِقينا[٧].

٤٢- حُدَيّا الناسِ كُلِّهِمُ جَميعاً مُقـارَعَةً بَنيهِم عَن بَنينا[٨].

واشتملت قصيدة الحارث بن حلزة على موضع واحد، جاء في قوله :

٤١-وَاِذكُروا حِلفَ ذي المَجازِ وَما قُ دِّمَ فيهِ العُهودُ وَالكُفَـــلاءُ

٤٢- حَذَرَ الخَونِ وَالتَعَدّي وَهَل يَن قُضُ ما في المَهارِقِ الأَهواءُ[٩].

وكذلك الشأن في قصيدة الأعشى، إذ اشتملت هي الأخرى على موضع واحد – أيضا – وهو قوله :

---

(١) ديوان طرفة بن العبد ص٢٣ ، تحقيق: محمد مهدي ناصر الدين، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) نفس المرجع ص٢٣ .

(٣) المرجع نفسه ص٢٤ .

(٤) المرجع نفسه ص٢٤.

(٥) ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص١٩٨ ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص١٢٧ .

(٦) ديوان طرفة ص٢٩ .

(٧) ينظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص٢٨٥.

(٨) ينظر نفس المرجع ص٢٨٦ .

(٩) ديوان الحارث بن حلزة ص٧٠ ، صنعه : مروان العطية ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م ، دار الإمام النووي ، دمشق .

١٩- صدَّتْ هُريرةُ عنَّا مَا تُكَلِّمُنَا جَهْلًا بأمِّ خُلَيْدٍ حَبْلُ مَنْ تَصِلُ[١].

والمتأمل في هذه المواضع العشرة للوقوف على خصائص بناء الجملة التعليلية فيها يجد أن من أبرز هذه الخصائص تنزل المصدر المعلل من المعلول منزلة الجواب من السؤال، وعامل النصب في المصدر محذوف، وهو من جنس المصدر نفسه .

ومنشأ هذا التنزل ومرجعه إلى ما يلف المعلول من إبهام وغموض شفيف؛ بسبب ما فيه من نوع إجمال .

أو يرجع إلى ما يشتمل عليه من حكم غريب، وأمر أو حدث عجيب يثير في أنفس المستمعين تساؤلا عن سبب هذا الحكم المذكور و علته، فيجيء المصدر جوابا عن هذا المقدر، ووفاء بقضاء حق هذه الحركة الوجدانية المتعطشة، قال صاحب الكتاب : " هذا باب ما ينتصب من المصادر ؛ لأنه عذر لوقوع الأمر، فانتصب لأنه موقوع له، ولأنه تفسير لما قبله، لم كان ؟ وليس بصفة لما قبله، ولا منه، وذلك قولك : فعلت ذاك حذار الشر، وفعلت ذاك مخافة فلان، وادخار فلان .... وفعلت ذاك لأجل كذا وكذا ؟ فقال : لكذا وكذا "[٢] .

وقال الكوفيون والزجاج : المصدر معمول لفعل محذوف، من جنس المصدر المذكور نفسه[٣].

فقول طرفة : " وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت " يثير في النفس تساؤلا عن سبب هذا الحكم المجمل، وهو تعلق الناقة في إسراعها في سيرها وعدم إسراعها بمشيئة الشاعر، كأنه قيل : لم كان إرقال الناقة وعدم إرقالها – والإرقال: نوع من السير السريع[٤] – مرتهن بمشيئة الشاعر ؟ فجاء قوله : " مخافة ملوي من القد محصد " بيانا للسبب، وعلة له، وتفصيلا لمناط الإجمال في الحكم السابق، فهي تفعل ذلك " مخافة سلط ملوي من القد موثق[٥] " .

وكذلك الشأن في قوله : " وإن شئت سامي واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها " وهو قريب الشبه جدا بالموضع السابق، وقوله – أيضا – : " وجاشت إليه النفس " وقوله : " ولست بحلال التلاع "، وقوله : " ويوم حبست النفس عند عراكه " ؛ إذ يثير الموضع الأول في النفس تساؤلا عن

---

(١) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٥٥ ، تحقيق : محمد حسين ، مكتبة الآداب ٢٠١٢م .

(٢) الكتاب لسيبويه ١/٣٧٦-٣٩٦ .

(٣) ينظر شرح الكافية في النحو للرضى ١٩٢/١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥م ، كما ينظر حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية بن مالك ١٢٢/٢ ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر ، بدون تاريخ .

(٤) ينظر جمهرة اللغة لابن دريد رقل ٧٩٠/٢ ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ، دار العلم للملايين ، بيروت ، كما ينظر مقاييس اللغة لابن فارس ,رقل ١٢٥/٢ .

(٥) شرح المعلقات السبع للزوزني ص٧٠ .

سبب جعل الشاعر رأس الناقة مساويا لواسطة رحلها في العلو، وجعلها كأنها تسبح في سيرها بعضديها، ويثير الموضع الثاني في الوجدان تساؤلا عن سبب ارتفاع النفس واضطرابها، وزوال القلب من مستقره لظنه الهلاك من صعوبة هذه الفلوات[١].

ويثير النفي في الموضع الثالث بواعث الشوق للوقوف على سببه، ولماذا نفى عن نفسه أن يكون من سكان التلاع، وهي مجاري الماء ينصب في الوادي، تستر من نزل فيها ؟[٢]

كما يثير الموضع الرابع " ويوم حبست النفس عند عراكه " في الوجدان تساؤلا عن سبب صبر الشاعر على روعات اليوم وفزعاته، وتهدد الأعداء إياه[٣]، فجاء قوله في الموضع الأول " نجاء الخفيدد "، أي : إسراعا كإسراع الخفيدد، وهو ذكر النعام المسمى ظليما، وجاء قوله في الموضع الثاني والثالث : على الترتيب: " خوفا – مخافة "، وجاء قوله في الموضع الرابع : " حفاظا على عوراته والتهدد؛ لبيان ما أبهم، وتفصيل ما أجمل، وجوابا عما قدر وقوعه في أنفس المستمعين، فيتقرر المعلول في النفس، ويثبت في الوجدان .

وتجد مثل هذا ظاهرا جليا في قول عمرو بن كلثوم : " نصبنا مثل رهوة ذات حد "، وفي قوله – أيضا – " حديا الناس كلهم جميعا " .

كما تجده في قول الحارث بن حلزة، وهو أظهر ما يكون : " واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء "، وفي قول الأعشى : " صدت هريرة عنا ما تكلمنا "، حيث أثارت الجملة المعلة السابقة على المصدر المعلل في المواضع المذكورة تساؤلا عن سبب شموخ قوم عمرو وعزتهم، وفرط إبائهم، ونصبهم خيلا مثل الجبل، أو كتيبة ذات شوكة، في بيته الأول، وعن سبب سوقهم الناس، ودعوتهم إياهم جميعا، لا يستثنون منهم أحدا[٤] .

وعن سبب طلب الحارث بن حلزة من غرمائه بني تغلب تذكر حلف ذي المجاز، وهو موضع بمكة أخذ فيه عمرو بن هند ملك الحيرة على تغلب وبكر العهود والمواثيق، وأصلح فيه بين الحيين[٥] .

وعن سبب صد هريرة صاحبة الأعشى عن كلامه، فجاء المصدر المنصوب في موضعي عمرو: " محافظة – مقارعة بنيهم عن بنينا "، وجاء في قول الحارث: " حذر الخون والتعدي "، وفي قول الأعشى: " جهلا بأم خليد " ليكشف عن سبب الحكم وعلته، ويشبع حاجة التطلع

---

(١) ينظر المرجع نفسه ص٧١ ، كما ينظر شرح القصائد العشر للتبريزي ص١١٣-١١٤

(٢) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص١٨٦ .

(٣) ينظر المرجع السابق نفسه ص٢٢٩ .

(٤) ينظر نفس المرجع ص٣٩٩ .

(٥) ينظر المرجع السابق ص ٤٧٨ .

العاطفي للمجهول، ويجيب عما عساه أن يكون قد قدر وقوعه في أنفس المستمعين، وبهذا يتقرر المعنى ويتأكد.

وأما قول طرفة : " ذريني أروي هامتي في حياتها "، فإن إخراجه مخرج الطلب لمما يثير في أنفس المستمعين تساؤلا عن السبب، لاسيما إذا تعلق بهذا الطلب من الغرابة والبعد ؛ لخروجه عن العرف المعهود، والواقع المشهود ما يذكي هذه المشاعر، ويستنفر هذه الانفعالات ؛ فإن إرواء الهامة – وهي روح القتيل الذي لا يدرك بثأره – إنما يكون بدرك الثأر بعد الموت، وليس في حياة الإنسان وقبل مقتله[1]؛ لذا جاءت الجملة المعللة بالمصدر: مخافة شرب في الحياة مصرد"[2] لتزيل هذه الغربة، وتميط اللثام عن سبب هذا الحكم العجيب .

على أن من أبرز خصائص بناء الجملة التعليلية في هذه الصورة : خلو المصدر المعلل في جميع المواضع المذكورة سلفا من اللام، وانتصابه على نزع الخافض، وهذه الخصيصة التركيبية، مقصود إليها – من وجه – ؛ للمبالغة في تقرير المعلول وتوكيده، وزيادة تثبيته وتمكينه ؛ لدلالتها على رسوخ العلة وثبوتها، وتحقق وقوعها وحصولها[3]، وهذا في قول طرفة : " مخافة ملوي من القد محصد"، وفي قوله : " نجاء الخفيدد " مما يقتضيه مقام وصف الناقة بالأصالة والنجابة، والقوة والجسارة ؛ فإن دلالة النصب على أن الخوف ثابت، والإسراع حاصل يؤكد أن هذه الناقة ذلول، وأنها طوع أمره، ورهن مشيئته .

وهو في قول طرفة – أيضا – " خوفا وخاله مصابا " ،وفي قوله :"مخافة شرب في الحياة مصرد" يقوم مقام الدليل والبرهان على ثبوت الخوف وتحققه، وأنه قد تلبس بالنفس الشاعرة، ووقر في داخلها، ليؤكد بحصولها في الموضع الأول على أصالة الناقة – أيضا – ونجابتها، وقوتها وجسارتها، وثقته بقدرتها على اجتياز الفلوات الصعبة التي ترتفع فيها النفس وتضطرب، ويزول القلب من مستقره؛ لتيقنه الموت والهلاك .

ويؤكد في الموضع الثاني وجاهة الطلب الغريب والحكم العجيب الذي سبق تفصيله في قوله: " ذريني أروي هامتي في حياتها "، فقد لا يتمكن من إروائها بعد موته، لاسيما وقد تحامته العشيرة كلها، وأفرد فيها إفراد البعير المعبد، وتنكر له أقرب الناس إليه، حسبما نطق بذلك نسق المعلقة وسياقها قبل ذلك .

أما انتصابه في قول طرفة – أيضا – : " حفاظا على عوراته والتهدد "، وفي قول عمرو بن كلثوم " محافظة وكنا السابقينا "، وقوله : " مقارعة بنيهم عن بنينا "، فللدلالة على ثبوت المحافظة

---

(١) ينظر نفس المرجع السابق ص١٩٨-١٩٩ ، كما ينظر شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص١٢٧ .

(٢) المصرد ، المقلل : يقال : شراب مصرد ، أي : مقلل ، وصرد له العطاء ، إذا قلله / مقاييس اللغة لابن فارس ، صرد ٣٤٩/٣ .

(٣) ينظر كتاب معاني النحو ٢٣١/٢ .

في الموضعين الأولين وحصولها، ووقوع المقارعة في الموضع الثالث ولزومها، وهذا بمقام الفخر أوفق، وفيه أدخل وأبلغ ؛ لما فيه من زيادة تقرير المعلول وتشديده، وتثبيته وتمكينه، وهو حبس النفس في موضع طرفة، وصبرها على روعات اليوم وفزعاته في قوله : " ويوم حبست النفس عند عراكه "، وهو شموخ بني تغلب، وفرط إبائهم، وقوة شكيمتهم من نصبهم خيلا للحرب مثل الجبل، أو كتيبة ذات شوكة في قول عمرو في موضعه الأول: " نصبنا مثل رهوة ذات حد "، أو سوقهم الناس، ودعوتهم إياهم جميعا، لا يستثنون منهم أحدا " في قوله في موضعه الثاني: " حديا الناس كلهم جميعا ".

وأما انتصابه في قول الحارث : " حذر الخون والتعدي "، وفي قول الأعشى: " جهلا بأم خليد "، فللإشارة إلى أن الحذر موجود ومتحقق، وأن الجهل واقع وثابت، وهذا تأكيد للطلب السابق في قول الحارث : " واذكروا حلف ذي المجاز وما قد م فيه العهود والكفلاء "، وتحقيق لوقوع الصد من هريرة في قول الأعشى : " صدت هريرة عنا ما تكلمنا "، فإن ثبوت العلة ووجودها ثبوت للمعلول ووجود له؛ إذ العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما[1]، وليس كذلك إثبات اللام ودخولها على المصدر ؛ إذ تفيد – في الغالب – عدم ثبوت العلة وتحققها .

ومن وجه آخر : فإن اطراح اللام، وانتصاب المصدر على نزعها مقصود إليه للمبالغة في الدلالة على قوة الصلة بين العلة والمعلول، والنداء على شدة ارتباط كل منهما وتعلقه بالآخر، وعدم انفكاكه عنه ؛ لإفادته " اتحاد فاعل العلة والمعلول[2] "، ففاعل الإرقال مثلا وعدمه والخوف في بيت طرفة " وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوي من القد محصد " واحد، وهو الناقة في كل، وفاعل الصد، والجهل في بيت الأعشى : " صدت هريرة عنا ما تكلمنا جهلا بأم خليد " واحد – أيضا – وهو هريرة، وهكذا سائر المواضع يمكن إجرائها على هذا النحو من التفصيل والتحليل .

ومن وجه ثالث: فإن حذف اللام واطراحها من نسق العبارة في المواضع السابقة مقصود إليه؛ تعجيلًا بذكر المطلوب، وتصوير الغرض المقصود، وإسراعًا إلى إطفاء لهيب الشوق والتطلع الذي أفعمت به نفس المتلقي نحو الوقوف على سبيل الحكم وعلته، لا سيما وأن المقام مما يقتضي هذه العجلة، ويتطلب هذا الإسراع.

وأخيرًا : فإن حذف اللام، ونصب المصدر على اطراحها هو الذي يعمل على تكثير الفائدة من الكلام ؛ بحمله على محامل شتى، ووجوه كثيرة، واعتبارات وجيهة ؛ إذ يحتمل المصدر

---

(١) ينظر الإحكام في شرح أصول الأحكام لابن حزم ٩٩/٨ ، ونفائس الأصول في شرح الوصول للقرافي ٣٤٣/٨ .

(٢) معاني النحو ٢٣٣/٢ .

المنصوب أن يكون للتعليل[١]، ويحتمل النصب على الحالية[٢]، ويحتمل النصب على المفعولية المطلقة[٣]، ومن ثم تحوز العبارة عنصر الإيجاز الذي ترجع إليه بلاغة الكلام، ولو ذكرت اللام لكانت نصا في التعليل فقط، دون سائر الوجوه الأخرى .

والمتأمل في الجملة التعليلية – ههنا – مرة أخرى، يجد أن المصدر المعلل قد برز في ثلاثة أنساق تعبيرية مختلفة ؛ فتارة يأتي المصدر مضافا إلى ما بعده، وقد جاء ذلك في أربعة مواضع، ثلاثة منها في معلقة طرفة، أولها قوله : " نجاء الخفيدد " بإضافة المصدر إلى معرف بالألف واللام، وثانيها وثالثها قوله : " مخافة ملوي من القد محصد – مخافة شرب في الحياة مصرد "، وقد اتفق فيهما المصدران المعلل بهما مادة وبناء، وأضيف كل منهما إلى نكرة .

وأما الموضع الرابع فهو قول الحارث بن حلزة : " حذر الخون والتعدي "، ووراء ذلك في المواضع الأربعة دلالة على لزوم المضاف للمضاف إليه، وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر، حتى كأنهما شيء واحد، إما بحسب الحقيقة والواقع، كما في قول طرفة : " وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد "، فإن لزوم " النجاء " وهو الإسراع في السير للخفيدد، وهو ذكر النعام المسمى ظليما مطابق للحقيقة والواقع؛ إذ يضرب مثلا في القوة مع السرعة .

وإما ادعاء ومبالغة، كما في المواضع الثلاثة الأخر ؛ فإن لزوم الإخافة الحاصلة من الناقة للسوط الملوي من الجلد الموثق في قول طرفة : " مخافة ملوي من القد محصد " يجري على وجه المبالغة والادعاء ؛ إذ ليس هو كل ما يستحث الناقة على الإسراع، ويجعلها طوعا ذلولا ؛ بدلالة ما سبق أن أثبته لها من أوصاف العتق والنجابة، والقوة والجسارة في نسق الأبيات السابقة، وهكذا يمكن قياس الموضعين الآخرين .

وتارة يعدى المصدر المعلل إلى ما بعده بحرف من حروف الجر، وقد جاء على هذا النحو في موضعين اثنين، أولهما : قول طرفة : " حفاظا على عوراته والتهدد "، وثانيهما : قول الأعشى: " جهلا بأم خليد " .

وإنما عدى المصدر في بيت طرفة بحرف الاستعلاء ؛ لأنه الأوفق بمقتضى حاله في الاعتداد بنفسه، والفخر بجميل خصاله وشمائله، الأقوى في الرد على لائميه من أهله وعشيرته الذين لم يقدروه قدره، ولم ينزلوه مقامه ؛ لدلالته – من وجه – على شدة صبره وجلده، واستعلائه على الشدائد والمكاره، ودلالته – من وجه آخر – على إحاطة هذه المحافظة بعوراته وفزعاته، واشتمالها عليها، فلا يتأتى خدشها، أو النيل منها .

(١) ينظر الكتاب لسيبويه ٣٦٩/١ .

(٢) ينظر شرح الكافية في النحو للرضى ١٩٢/١ ، كما ينظر حاشية الصبان على شرح الأشموني ١٢٢/٢ ، ومعاني النحو للدكتور : فاضل صالح السامرائي ٢٣٠/٢ .

(٣) ينظر شرح الكافية في النحو ١٩٢/١ ، وحاشية الصبان ١٢٢/٢ ، ومعاني النحو ٢٣٠/٢.

وعدى بالباء في قول الأعشى ؛ لأنه الأنسب بمقام الغزل ؛ لما فيه من التلطف بهريرة، وفرط التودد إليها، لتمكنه بذلك من تحاشي نسبتها إلى الجهل، أو نسبة الجهل إليها صراحة، وتأكيد هذا من قرينة السياق ؛ حيث كنى عنها ب " أم خليد"، و" أم خليد " هي هريرة نفسها؛ بدلالة الرواية الأخرى: " صدت خليد عنا"(١).

وتارة يعدى المصدر إلى المفعول بعده بنفسه، ومن دون واسطة، وذلك في قول عمرو بن كلثوم : " مقارعة بنيهم عن بنينا " ؛ لأنه الذي يحقق – من وجه– نوعا من التوازن والتقابل مع المصدر المتصدر للشطر الأول : " حديا الناس كلهم جميعا " .

ويحقق– من وجه آخر– مطابقة الكلام لمقتضى حال الشاعر نفسه في الإحساس اليقيني بقوة قومه، وثقته التامة من أن ثمرة ذلك التحدي، ونتيجة تلك المقارعة التي بدت في غاية الغرابة، لأن طرفها الآخر هو الناس كل الناس "حديا الناس كلهم جميعا " سوف تكون في جانبه، وفي جانب قومه؛ لتعلقها بما لا يتوقع التفريط فيه، أو التهاون بشأنه، وهو الشرف والشدة، وهو ما تكفل المفعول ببيانه(٢)

وتارة يعامل المصدر المعلل به معاملة الفعل اللازم المطلق عن التقييد، وذلك في ثلاثة مواضع، أولها وثانيها في معلقة طرفة : " وجاشت إليه النفس خوفا – ولست بحلال التباع مخافة"، وثالثها في معلقة عمرو بن كلثوم : " نصبنا مثل رهوة ذات حد محافظة "، وذلك في المواضع الثلاثة لإثبات الخوف أو المحافظة مطلقا من كل قيد، مرسلا عن كل طوق وحد ؛ إذ هو الذي يفيد في الموضع الأول : " وجاشت إليه النفس ..... " تفخيم الخوف وتهويله ؛ بقرينة تنكيره؛ ليتوصل من وراء هذا المعنى إلى تفظيع شأن هذه الفلاة التي قطعها الشاعر بناقته، وتهويل أمرها، حتى زال قلب صاحبه بسبب ذلك من ممستقره، وارتفعت نفسه فرقا من تيقن الهلاك ؛ لتتعانق كل هذه الدلالات في مقام وصف الناقة على تصوير عتقها ونجابتها، وقوتها وجسارتها، وجدارتها أن تكون النموذج الأسمى، والرمز الدال الذي يجوز به الشاعر رحلة الحياة آمنا حين يفزع الآخرون .

وهو الذي يفيد في الموضع الثاني : " ولست بحلال التلاع مخافة " العموم والشمول ؛ بقرينة تنكيره – أيضا – ليشمل القليل والكثير، والقريب والبعيد، والعدو والصديق، ليكون ذلك في مقام الرد أبلغ، وفي مجابهة لائميه أقوى وأدخل، وفي الفخر بنفسه، وبجميل خلاله أكمل، وفي المدح أتم وأوفى، وعلى مثل هذا النهج – أيضا – يجري إطلاق المصدر : " محافظة " وتنكيره في قول عمرو ؛ إذ يفيد عموم المحافظة وشمولها كل ما يقتضي المحافظة ويتطلبها من الحسب والنسب، والمال والعرض، والقبيلة والأرض .

وليوازى ما يتوارى وراء إطلاق المصدر وتنكيره من دلالة التهويل والتضخيم، والتفخيم والتعظيم، ما يتوارى خلف نصب قوم عمرو خيلا مثل الجبل، أو كتيبة عظيمة ذات شوكة من هول وفخامة، وعظم ومهابة .

---

(١) ينظر شرح القصائد العشر للتبريزي ص٣٩٦ .

(٢) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليا ت لابن الأنباري ص٣٩٩ ، والمعلقات العشر . دراسة في التشكيل والتأويل . د/ صلاح رزق ٢/ ٢٧٣ .

" المحور السادس "

" خصائص بناء التي خرجت مخرج التعليل بالواو "

استعمال الواو في معنى التعليل نادر الوجود، وقد أشار إلى ذلك السيوطي في الإتقان، واستشهد له ببعض الأمثلة[١].

وهي حين تأتي لهذا المعنى وتستعمل فيه يكون للجملة المعلل بها من السمات والخصائص البنائية والدلالية ما تتفرد به عن الجمل التي لم تدخل فيها الواو، وكان اتصالها بما قبلها اتصالا داخليا عن طريق تلك الحركة النفسية المقدرة، وذلك حسبما يأتي تفصيله وتحليله في المحور الأخير إن شاء الله – تعالى .

وقد جاءت الواو لهذا المعنى في عدة مواضع من شعر المعلقات برز الأول والثاني منها في قول طرفة :

وَلَستُ بِحَلّالِ التِلاعِ مَخافَةً   وَلَكِن مَتى يَستَرفِدِ القَومُ أَرفِدِ

وفي قوله :

يلومُ ومَا أَدْرِي عَلَامَ يلومُنِي   كما لامنِي في الحيِّ قُرْطُ بنُ أَعْبَدِ[٢] .

وشخص الموضع الثالث والرابع منها في قول زهير :

عَظيمَينِ في عُليا مَعَدٍ هُدِيتُمَا   وَمَن يَستَبِح كَنزاً مِنَ المَجدِ يَعظُمِ[٣] .

وفي قوله :

سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ وَمَن يَعِش   ثَمانينَ حَولاً لا أَبا لَكَ يَسأَمِ[٤] .

بينما جاء الخامس والسادس في قول عنترة :

وإذا صحوتُ فما أُقَصِّرُ عنْ ندًى   وكما علمتِ شمائلِي وَتَكَرُّمِي[٥].

وقوله :

نُبِّئْتُ عَمْراً غيرَ شاكِرِ نِعْمَتِي   والكفرُ مَخْبَثَةٌ لِنفْسِ المُنْعِمِ[٦].

وجاء السابع والثامن في قول الحارث :

ثمَّ فاءُوا منهمْ بِقَاصِمَةِ ال   ظَّهْرِ ولا يَبْرُدُ الغَلِيلَ الماءُ[٧].

---

(١) ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٥٧١ ، تحقيق : د/ مصطفى ديب البغا ، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م ، دار ابن كثير ، دمشق – بيروت .

(٢) ديوان طرفة بن العبد ص٢٦ .

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى ص١٠٦ .

(٤) المرجع نفسه ص١١٠ .

(٥) ديوان عنترة بن شداد ص١٦ .

(٦) المرجع نفسه ص١٩ .

(٧) ديوان الحارث بن حلزة ص٧١ .

وفي قول لبيد :

مِنْ مَعْشَرٍ سنَّتْ لهم آباؤُهُم ولكلِّ قَومٍ سنةٌ وإِمَامُهَا[١].

حيث تجد الجملة التعليلية في كل ما سبق، وهي في ترتيب مواضعها في الذكر على النحو الآتي: " ولكن متى يسترفد القوم أرفد – وما أدري علام يلومني– ومن يستبح كنزا من المجد يعظم – ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم– وكما علمت شمائلي وتكرمي – والكفر مخبثة لنفس المنعم – ولا يبرد الغليل الماء – ولكل قوم سنة وإمامها " قد اقترنت بالواو، وتلبست بها؛ ليؤذن دخول الواو في صدر الجملة على هذا النحو السابق – من وجه – باستقلالية العلة عن المعلول، وعد توقفها في الإفادة على الارتباط به؛ لما في الواو من معنى المغايرة[٢]، وأن ما بعدها كأنه جنس مغاير لما قبله، وإن كان شديد الصلة والارتباط به .

ويفيد – من وجه آخر– التأكيد والاهتمام، وتحقيق الوصف المتقدم وتقريره، وتثبيته وتمكينه؛ لدلالة الواو على ثبوت العلة للمعل، وشدة لصوقها به، وظهور كمالها فيه[٣].

وتأكيد هذه الدلالات من قرينة السياق؛ إذ خرجت هذه الجمل في مواضعها مخرج التذييل التعليلي الذي يقرر ويؤكد ما قبله ؛ لكونه في مضمونه ومعناه، مع اعتبار ما اختصت به كل واحدة منها في مقامها بوجه من وجوه الإفادة، وذلك حسبما يؤذن به دخول الواو فيها من الاستقلالية .

والذي يجري مجرى الأمثال في الشهرة والذيوع، والكثرة والانتشار ؛ لإمكان استقلاليته بالإفادة، وعدم توقف فهم معناه على ما قبله، وتأتي استعارته في المقامات المماثلة، والهيئات المشابهة ؛ لتجسد هذه الجمل في النهاية خلاصة تجربة إنسانية، وخبرة نفس بشرية عركتها المواقف والأحداث، ونالت منها، فصاغت هذه التجارب حكمة باقية تتناقلها الأجيال جيلا بعد جيل، على امتداد الحياة، وتعاقب الأحياء .

وإن شئت تفصيلا لذلك فراجع قول زهير : " ومن يستبح كنزا من المجد يعظم " فقد جاء في موقعه تذييلا مقررا ومؤكدا لمضمون الجملة المعلة قبله : " عظيمين في عليا معد هديتما " وجاريا مجرى المثل، وذلك في الدلالة على عظمة الممدوحين – هرم بن سنان، والحارث بن عوف –

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة ص١١٦ .

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٦٩/٢ ، تحقيق : أحمد يوسف النجاتي – محمد علي النجار ، الطبعة الأولى ، دار المصرية للتأليف والترجمة ، بدون تاريخ ,والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٩٩٧/١ .

(٣) ينظر الكشاف للزمخشري ٧١٣/٢ ، وبدائع الفوائد لابن القيم ١٩١/١ ، دار الكتاب العربي، بيروت ، بدون تاريخ ، والكليات للكفوى ص٩٢٢ ، تحقيق : عدنان درويش ، محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، بدون تاريخ .

ورفعة شأنهما ؛ لما بذلاه من الغالي والنفيس في الإصلاح بين عبس وذبيان، حسبما علم من مقتضى حالهما في السعي في ذلك، واشتهر من تحملهما ديات القتلى بين الفريقين .

كما أفاد هذا التذييل ونادى – إلى جوار ما سبق – على أن لإدراك المجد ودرك العظمة ثمنا يدفع، ومقابل يبذل، فليس هذا مما يدرك بالهوينا، أو ينال بالتمني، بل لا بد من استباحة الغالي والنفيس، وبذل كل ما من شأنه أن يضن به، أو يفتخر به من شريف المواقف، وسامي القيم الإنسانية الرفيعة، وهذا ما آذن به دخول الواو فيه .

وهكذا الشأن – أيضا – في قول زهير : " ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم " الذي جاء في موقع التذييل التعليلي الذي جسد به الشاعر عمق الإحساس بالسأم، والضيق والضجر، وسوء الحال الذي صوره في قوله : " سئمت تكاليف الحياة "، وقد أفاد التعليل – بالإضافة إلى ما سبق – أن طول الحياة وامتداد العمر من شأنه أن يجلب المعاناة والسأم، والضيق بتكاليف الحياة وضوابطها المرهقة، ولا بد في النهاية من لحظة حتمية للمواجهة .

ولك أن تنظر في قول لبيد : " ولكل قوم سنة وإمامها " الذي أفاد بقرينة دخول الواو – إلى جانب كونه تذييلا تعليليا مقررا ومؤكدا لمضمون الجملة المعلة قبله : "من معشر سنت لهم آبائهم"، وجاريا مجرى المثل – تأصل قومه في المكرمات، وتجذرهم في الفضائل والمحاسن، وهذا في مقام الفخر أمدح، وبه ألصق ؛ لدلالته– بقرينة إخراجه مخرج الاسمية المنبئة عن الثبوت والدوام – على أن هذه الفضائل والمكرمات هي طريقتهم القديمة الثابتة، ونهجهم المطرد الذي سنه لهم الآباء والأجداد، ولم يتخلف عنه الأبناء والأحفاد .

ولك أن تنظر – أيضا – في قول عنترة : " وكما علمت شمائلي وتكرمي "، وقوله : " والكفر مخبثة لنفس المنعم " ليؤذن دخول الواو بالاستقلالية، وعدم ترتب الجملة المعللة في الموضعين على المعلة : " وإذا صحوت فما أقصر عن ندى – نبئت عمرا غير شاكر نعمتي " أو ارتباطها بها داخليا، وإن كانت لصيقة الصلة بمضمونها، قوية الارتباط بمعناها، وهذا في معرض التوبيخ في الموضعين أبلغ، وفي الزجر والتعنيف، واللوم والتأنيب أدخل ؛ لدلالته في الموضع الأول – من وجه – على أن هذا هو المعلوم من حال الشاعر، المشهور من أخلاقه، ولا يتأتى جحده وإنكاره، أو التهوين من شأنه .

وإحالته المخاطب[1] – من وجه آخر – إلى رصيده من المعرفة ؛ ليقف على صحة الأمر بنفسه، وينتهي إليه بعلمه، ودلالته في الموضع الثاني – من وجه – على خبث عمرو ودناءته، ولؤمه ووضاعته ؛ حيث تنكر لجميل الشاعر، وكفر نعمته، وبهت معروفه وإحسانه، وتطابقها – من وجه آخر – مع مقتضى حال الجبلة البشرية التي فطر الناس عليها ؛ إذ يسوؤها النكران،

(١) سواء أقصد به المحبوبة أو القبيلة .

ويفت في عضدها الجحود، وبخاصة حين تخلص العطاء، وتترقب العرفان، لاسيما إذا كانت النعمة المسداة كبيرة، والمعروف المبذول ثابت لا يمارى فيه .

ولك أن تنظر أخيرا في قول الحارث : " ولا يبرد الغليل الماء "، فهو- إلى جوار تأكيده المعنى السابق الذي نادت عليه الجملة المعلة : " ثم فاءوا منهم بقاصمة الظهر " من تحقيق أمر الهزيمة التي لحقت بالتغلبيين على أيدي ثمانين رجلا من تميم، وذلك على النحو الذي قصه الشاعر في الأبيات السابقة، وتقرير كثرة ما نهب من أيديهم في إثر ذلك ؛ لخروجه – من وجه – مخرج التذييل التعليلي، وخروجه – من وجه آخر – مخرج التمثيل الذي جاء في أعقاب المعاني، حيث شبه هيئة بني تغلب وحالهم البائسة في إزالة ما علق بهم من آثار الهزيمة وذل الانكسار على أيدي رجال من تميم بهيئة الغليل الذي يحاول عبثا مرة بعد مرة إبراد ما في صدره من حرارة العطش، ولهيب الظمأ – يشير إلى أن بقاء وصمة عار هذا الذل، وهوان تلك الهزيمة والانكسار التي لحقت ببني تغلب لا يمحوه طول الأمد، ولا يعفو عليه النسيان أو امتداد الدهر، كما أن ماء الدنيا كله لا يبرد ما في جوف الغليل من الحزن والبلاء الذي نزل به ؛ لما فيه من شدة الحرارة، ونهاية السخونة(١)، وهكذا سائر المواضع السالفة الذكر يمكن إجراؤها في التحليل على هذا النحو السابق في المواضع المحللة .

على أن البحث حين يقترب من الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالواو في المواضع السابقة، ويعاودها بالتأمل مرة أخرى يثير اهتمامه أن تبهرجها في الغالب في معرض الفعلية ذات الفعل المضارع المصاحب للشرط والنفي على حد سواء هو أبرز خصائصها في هذا المحور، تأمل قول طرفة : " ولكن متى يسترفد القوم أرفد "، وقوله : " وما أدري علام يلومني "، وقول الحارث : " ولا يبرد الغليل الماء "، وراجع قول زهير : " ومن يستبح كنزا من المجد يعظم "، وقوله : " ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم "، فهذا له ما وراءه من غور في الدلالة، وعمق في الإيحاء .

فالفعل المضاع في الشرط والجزاء في قول طرفة : " ولكن متى يسترفد القوم أرفد " هو الأقوى في تقرير النفي السابق في الجملة المعلة : " ولست بحلال التلاع مخافة " وتوكيده، الأبلغ في الرد على ابن عمه وتعنيفه ؛ لدلالته على أن إعانته من يستعين به هي ديدنه الذي لا ينفك عنه مرة بعد مرة، وحالا بعد حال، كلما تجدد الدعاء إلى مكرمة، وتكرر النداء إلى منقبة ومحمدة .

وقد تعانق مع دلالة المضارع السابقة على تحقيق المعنى الذي قصده الشاعر وتشديده خلو الجملة التعليلية – أولا – من جميع المؤكدات(٢)، وما وراء ذلك من دلالة على أن الأمر في غاية

---

(١) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٤٨٦ ، كما ينظر كلاسيكيات الشعر العربي ، المعلقات العشر ، د/ صلاح رزق ٣٩١/٢ .

(٢) وخلو الجملة التعليلية من المؤكدات يمثل إحدى خصائصها البنائية في هذا المحور، وقد سبق تفصيل هذه الخصيصة وتحليلها وتعليلها في المحاور السابقة .

الظهور والوضوح، حتى صار لشهرته معلوما لكل أحد، وفي هذا تعريض بابن عمه، وإيحاء بأن النقد أو اللوم الذي وجهه إلى الشاعر لا مسوغ له في حقيقة الواقع إلا دسيسة النفس، ودخن القلب.

وإخراجها – ثانيا – مخرج الشرط والجزاء، وما تثيره خاصة التعليق في هذا الأسلوب في نفس المتلقي من نوازع الشوق إلى الجواب، وترقب مجيئه، فإذا ورد على النفس، ووعاه السمع بعد هذه التهيئة، تمكن المعنى في القلب، واستقر في أعماق الضمير .

وقد كان لإيثار أداة الشرط من مادة الزمان خاصة : " متى " أثر كبير في تصوير علو همته، وتجسيد قوة عزيمته، والنداء على فرط تأهبه واستعداده ؛ لدلالتها على الزمان المبهم(١)، كأنه لا ينفك عن طلب المعالي، وفعل المكرمات في أي وقت، وعلى أية حال .

وإخراجها – ثالثا – مخرج تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه(٢)، أو تأكيد المدح بما يشبه الذم ؛ فقد نفى عن نفسه في الجملة المعلة : " ولست بحلال التلاع مخافة " أن يكون ممن يسكن الوهاد المنخفضة مخافة أن يراه الضيف وابن السبيل؛ إذ التلاع : هي مجاري الماء ينصب في الوادي تستر من نزل فيها(٣)، وهذه صفة مدح، ثم استثنى من صفة الذم المنفية هذه صفة مدح أخرى عن طريق الاستدراك ب " لكن " التي تقوم مقام أداة الاستثناء(٤)، فتوهم السامع بادي النظر أن ما بعد أداة الاستدراك مغاير لما قبلها، وليس من جنسه، وأن الشاعر سوف يستثني من صفة المدح السابقة صفة ذم، فلما كان ما بعد أداة الاستدراك من جنس المدح – أيضا – : " ولكن متى يسترفد القوم أرفد " تأكد المدح السابق، وازداد المقام قوة إلى قوته، وعمقا إلى عمقه وإيحائه .

والفعل المضارع المنفي في قول طرفة : " وما أدري علام يلومني " هو الأبلغ في تصوير فرط حيرة الشاعر، وتجسيد عظيم دهشته، وشدة استغرابه من لوم ابن عمه إياه من دون سبب أو مقتضى يدعو لذلك ؛ لدلالته على تجدد نفي الدراية واستمراره حينا بعد حين، وحالا بعد حال .

وتأكيد هذا من وقوع الجملة التعليلية السابقة معترضة بين المشبه المدلول عليه من جملة " يلوم "، والمشبه به المدلول عليه من جملة : " كما لامني في الحي قرط بن أعبد "؛ دفعًا لتوهم أن يكون للوم ابن عمه إياه وجهًا، وتعجيلًا بنفي التهمة عن نفسه، وتنبيهًا على غاية خطأ ابن عمه، ونهاية شططه ولدده في الخصومة.

---

(١) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ١٠٣/٤ .

(٢) هذه التسمية استحسنها سعد الدين في المطول ؛ لأن الكلام قد لا يكون مدحا ولا ذما . ينظر المطول لسعد الدين التفتازاني ص٢٧٣ ، تحقيق : د/ عبد الحميد هنداوي ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، كما ينظر الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للعصام= =٤٣٥/٢ ، تحقيق : د/ عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى ٢٠٠١م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٣) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص١٨٦ .

(٤) ينظر المطول لسعد الدين التفتازاني ص٦٧٥ ، والأطول للعصام ٤٤١/٢ .

ومن إيثار " ما " في النفي خاصة ؛ إذ هي الأقوى أثرا في نفي الدراية عن الشاعر في الأزمنة الثلاثة ؛ لتخليصها المضارع بعدها للاستقبال ؛ ليكون عدم درايته بوجه اللوم في المستقبل ذريعة لتأكيد نفي درايته بذلك في الماضي والحاضر، وتقرير كونه في غاية البعد .

والفعل المضارع في الشرط والجزاء في قول زهير : " ومن يستبح كنزا من المجد يعظم "، وقوله – أيضا – : " ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم " هو الذي يصور في الموضع الثاني سوء الحال التي آل إليها الشاعر من طول العمر، وامتداد الحياة به، ويبرزها شاخصة للعيان، ماثلة للأفهام .

وتأكيد هذا من النص صراحة على العدد: " ثمانين حولا " الذي وقع في موقع المفعول به لفعل الشرط، ومن هذا الاعتراض المتخلل بين فعل الشرط وجزائه: "لا أبالك" والذي ينطق بفرط السأم، ونهاية الضجر، وشدة التبرم والضيق من تلك الحال.

ومن إيثار " من " في تعليق الشرط والجزاء ؛ إذ هو الأنسب بما يتسم به من عموم الدلالة وشمولها – بمقام التعريض، والاحتراز عن التصريح بكبره وضعفه، وهرمه وشيخوخته ؛ إذ كانوا يعدون ذلك عيبا وشينا .

وهو الذي يدل في الموضع الأول على أن استباحة المجد ودرك المعالي مرهون بالمجازفة، واستئصال الغالي والنفيس، وتكرر المحاولة الدءوبة، واستمرار السعي الحثيث وحدوثه مرة بعد مرة، وحالا بعد حال، كلما عنت الأسباب، واقتضت الدواعي .

وتأكيد هذا – أيضا – من استعارة الاستباحة للاستئصال، استعارة تبعية في الفعل، بجامع الانتهاك وعدم الإبقاء على شيء، وما يوحي به إيثار هذه الكلمة دون غيرها من إطلاق اليد بقوة فيما عظم من مقتضى هذا الكنز الذي يزداد قيمة حين يكون كنزا من المجد خاصة، وما يخلعه هذا التعبير على المعنى من تشخيص وتجسيد يجعل لإطلاق اليد في المجد أثرا محسا، وصورة مرئية، وذلك يجري على تشبيهه بما يدخر من ثمين الجوهر ونفيس المتاع .

ومن إيثار اسم الشرط " من " في تعليق فعلي الشرط والجزاء ؛ فإنه في مقام المدح أوفى، وبه أوفق وألصق ؛ لما فيه من معاني الفخامة والعظم، والنفاسة والنبل التي تتناسب مع فخامة الكنز المستباح وعظمه، ونفاسته وشرفه ؛ لما يتميز به من عموم الدلالة وشمولية الإيحاء، وهكذا – أيضا – يمكن قياس الأمر في قول الحارث : " ولا يبرد الغليل الماء " على ما تقدم في التفصيل والتحليل والتعليل.

وقلما تخرج الجملة التعليلية التي دخلت فيها الواو مخرج الاسمية، أو الفعلية ذات الفعل الواقع في الزمان الغابر، وقد جاء ذلك في ثلاثة مواضع؛ موضع واحد خرجت فيه في صورة الفعلية ذات الفعل الماضي، وذلك قول عنترة: " وكما علمت شمائلي وتكرمي "، فإن إيثار صيغة الماضي من العلم هو الأبلغ في مقام اللوم الموجه إلى المحبوبة أو القبيلة – على اختلاف في

توجيه الخطاب؛ لدلالتها على حصول العلة ووقوع العلم على وجه الجزم واليقين، وهذا يجعل للومه وجها مقبولا، وعلة مستساغة .

والجملة التعليلية المذكورة برزت في موقع المشبه به ؛ إذ الأصل : علما كعلمك بشمائلي وتكرمي ؛ فإن " ما " التي دخلت عليها الكاف مصدرية، تؤول مع الفعل بعدها بمصدر، حيث شبه مطلق العلم بهيئة علمها بشمائله وتكرمه، وهذا من تشبيه المعقول بالمعقول الذي صار لشدة ظهوره ووضوحه، وذيوعه وانتشاره كالمحسوس الذي تكاد تلامسه الأيدي، وتبصره العيون، وتسمعه الآذان.

وخرجت في موضعين اثنين مخرج الاسمية المنبئة عن الثبوت والدوام، وذلك قول عنترة – أيضا – : والكفر مخبثة لنفس المنعم "، وقول لبيد : " ولكل قوم سنة وإمامها " ؛ لأن مضامينهما من الحقائق الثابتة، والمسلمات الراسخة التي لا تتبدل بتبدل الزمان والمكان، ولا تختلف باختلاف الأحول والهيئات، وذلك حسبما سبق تفصيله وتحليله في الخصائص المتقدمة.

والألف واللام في " الكفر " في قول عنترة للعهد، إذ المقصود نوع من الكفر معلوم، وهو كفران النعمة وجحودها، ويجوز أن يكون التعريف للجنس ؛ ليشمل كل أنواع الكفر وأشكاله، وإن كان المعنى الأول هو الأوفق بنسق الأبيات وسياقها.

وإنما قدم هذا المسند إليه المعرف بالألف واللام ؛ زيادة في تشنيع الجحود وتفظيعه، وتعجيلا بتشنيع صنيع عمرو المذكور في الأبيات، وإيقاع بشاعته في النفس أولا، وعلى هذا النسق – أيضا – يجري تنكير " مخبثة " التي وقعت موقع المسند في الجملة .

وقدم المسند المجرور في قول لبيد " ولكل قوم " على المسند إليه : " سنة " الذي نكر تفخيما وتعظيما ؛ مراعاة للبعد الإيقاعي، والتوافق النغمي في القوافي .

وقد يلحق بهذه الصورة نوع دخلت فيه الواو على المعلول دون العلة التي تقدمت عليه في نسق الكلام على خلاف الأصل، كقول امرئ القيس مخاطبًا الذئب:

كِلَانَا إِذَا ما نَالَ شَيئًا أَفَاتَهُ وَمَنْ يَحْتَرِثْ حَرْثِي وحَرْثَكَ يَهْزُلِ

إذ الأصل: ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل فكلانا إذا ما نال شيئًا أفاته، أي: من يسع سعيي وسعييك يفتقر، ويعش مهزولًا؛ لأن كلانا إذا ما ملك شيئًا أنفقه وبذره(١).

وهذا النوع لا يختلف في سمته وطريقة بنائه عما دخلت فيه الواو على العلة، وإنما تقدمت العلة على المعلول في هذا النمط؛ للإيذان بشدة ظهور الأمر، والنداء على غاية وضوحه، والدلالة على فرط تلبس العلة بالمعلول وقوة لصوقها به، حتى كأنهما شيء واحد.

(١) ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٣٧ .

" المحور السابع "

" خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالاستفهام "

دخول الاستفهام في صدر الجملة التي وقعت تعليلا يمثل ظاهرة قليلة الدوران في شعر المعلقات، ودليل هذا من عدد المواضع التي خرجت هذا المخرج، حيث لم تتجاوز خمسة مواضع، استحوذت معلقة عمرو بن كلثوم وحدها على ثلاثة منها، وذلك في قوله مخاطبا عمرو بن هند ملك الحيرة :

تَهَدَّدنا وَأَوعِدنا رُوَيداً   مَتى كُنَّا لِأُمِّكَ مَقتَوينا(١).

وفي قوله مخاطبا بني بكر ومهددا إياهم :

إِلَيكُم يا بَني بَكرٍ إِلَيكُم   أَلَمّا تَعرِفوا مِنّا اليَقينا

أَلَمّا تَعرِفوا مِنّا وَمِنكُم   كَتائِبَ يَطَّعِنَّ وَيَرتَمينا(٢) .

وجاء الموضع الرابع منها في قول زهير مخاطبا خليله :

تَبَصَّر خَليلي هَل تَرى مِن ظَعائِنٍ   تَحَمَّلنَ بِالعَلياءِ مِن فَوقِ جُرثُمِ(٣).

أما الموضع الخامس فبرز في قول الأعشى معاتبا هريرة :

صَدَّت هُرَيرَةُ عَنّا ما تُكَلِّمُنا   جَهلاً بِأُمِّ خُلَيدٍ حَبلَ مَن تَصِلُ

أَأَن رَأَت رَجُلاً أَعشى أَضَرَّ بِهِ   رَيبُ المَنونِ وَدَهرٌ مُفنِدٌ خَبِلُ(٤).

ودخول الاستفهام في صدر الجمل التي خرجت مخرج التعليل في المواضع السابقة – وهي على حسب ترتيبها في الذكر في مواضعها على النحو الآتي : " متى كنا لأمك مقتوينا– ألما تعرفوا منا اليقينا – ألما تعرفوا منا ومنكم كتائب يطعن ويرتمينا – هل ترى من ظعائن ....– أأن رأت رجلا أعشى ...." – جاء متوافقا مع طبيعة المقامات، ومتناغما مع خصوصية المواقف التي صورتها هذه الجمل؛ لأنه – من وجه– يجعل الأمر بمعرض من الشك والارتياب، والتردد والاحتمال.

ويصور – من وجه آخر – مشاعر الاستغراب والاندهاش، والحيرة والذهول التي انتابت الذات المتكلمة حيال موقف الذات المخاطبة، وهيمنت على انفعالاتها، وكأن المتكلم في كل ذلك يسأل سؤالا حقيقيا، وينتظر من المخاطب جوابا، وكأنه يقذف حجرا في الماء الراكد، فيضطرب اضطرابا شديدا، ويتحرك بقوة، وهذا من شأنه أن يصعد من نبرة المعنى وحدته، وأن يزيد المراد تقريرا وتوكيدا، وتثبيتا وتمكينا .

---

(١) ينظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص٢٨٧ .

(٢) ينظر المرجع نفسه ص٢٩٢ .

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى ص١٠٣ .

(٤) ديوان الأعشى ص٥٥ .

فالمقام في الموضع الأول من أبيات عمرو : " متى كنا لأمك مقتوينا " مقام إنكار وتوبيخ، وزجر وتقريع وتعنيف لعمرو بن هند ملك الحيرة، حيث أراد أن يستعمل أم الشاعر عمرو بن كلثوم، وسيد بني تغلب في خدمة أمه، وهي العزيزة التي تأبى الضيم، ولا تقبل المهانة ؛ فإن القتو : هو الخدمة، أو هو خدمة الملوك خاصة، والتذلل لهم(١).

وإخراج الإنكار في صورة الاستفهام – لا شك – أبلغ أثرا، وأقوى تحريكا للنفس من النفي الصريح ؛ لما فيه من زيادة تنبيه للسامع، وإثارة لحركة فكره ؛ وإيقاظ مشاعره ؛ ليتعامل مع ما يلقى إليه بهذا الفكر الواعي، والإحساس المتوقد، ثم ينتهي فيه إلى ما يراه(٢).

ثم إن المتكلم بالاستفهام الإنكاري لم يفد مخاطبه غرضه من أول وهلة، وهو توبيخه وتقريعه، بل أحاله إلى نفسه، وأوقع في روعه أنه يطلب منه جوابا، فيتنبه، ويرجع إلى نفسه ليجيب، فإذا رجع إلى نفسه وجد فيها ما يريده المتكلم منه، دون أن يملي عليه المتكلم غرضه ومقصده (٣).

ومن وجه ثالث فإن الاستفهام الإنكاري يشعر بثقة المتكلم بنفسه، واطمئنانه إلى قضيته، وأنه لا يخشى مخالفة أو تكذيبا ؛ لإيهامه أن السامع أعلم منه بحقيقة الأمر، ولذلك فهو يطلب منه الجواب بحسب الظاهر(٤) .

والمقام في الموضعين الآخرين من معلقة عمرو : " ألما تعرفوا منا اليقينا – ألما تعرفوا منا ومنكم كتائب يطعن ويرتمينا " مقام تهديد ووعيد، وتحذير وتخويف لبني بكر بن وائل خصوم بني تغلب التقليديين .

وإخراج التهديد والوعيد في صورة الاستفهام هو الأدخل في هذا المقام، الأبلغ فيه ؛ لبعد مكانه في تفخيم الأمر وتهويله، وتضخيمه وتكبيره ؛ فإن عدم النص صراحة على الأمر المهدد به يجعل المتلقي في حالة من الفزع الدئم، والتفكير الدائب في نوع العقاب المترتب على هذا التهديد وكنهه، كما يترك له فرصة استحضاره لعله ينتظر وقوعه فيرتدع، هذا إلى جانب ما يتضمنه هذا الوعيد من معنى التقرير الذي قصد إليه الشاعر قصدا ؛ لينتزع به من بني بكر بن وائل اعترافهم بهذه الحقيقة، فيكون عدم اعتبارهم حجة عليهم(٥) .

---

(١) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٤٠٤ .

(٢) ينظر فروق التقديم والتأخير عند عبد القاهر . د/ أحمد السيد طلحة ص٦٦ ، بدون تاريخ.

(٣) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص١١٩ ، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م، مطبعة القاهرة، دار المدني، جدة، وكتاب فروق القديم والتأخير عند عبد القاهر . د/ أحمد السيد طلحة ص٦٦-٦٧

(٤) ينظر دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر . د/ عبد الهادي العدل ص٢٦٥ دار الفكر الحديث ١٩٥٠م .

(٥) ينظر كتاب : نظرات في أسلوب الإنشاء والقصر . د/ محمد إبراهيم عبد العزيز شادي ص٤٧ ، طبعة ١٩٩١م

وتأكيد هذا التوجه في التحليل وبرهانه من اقتران الاستفهام بالنفي الذي أوثرت فيه الأداة : " لما " خاصة في نسق الجملة وبنائها ؛ فإنها تؤذن بقرب الوقوع، ودنو الحصول(١).

والمقام في قول زهير: " هل ترى من ظعائن ...." في تصوير حال الضيق، والإحساس بالضعف والوهن أمام سطوة الزمن، وتقلبات الدهر وصروفه.

وإخراج العلة في ثوب الاستفهام : " هل ترى من ظعائن " هو الذي يجسد قمة الضعف، ويصور حالة الانكسار والهروب من وطأة المواجهة اللائقة للموقف الراهن، ويبرز غاية ثقلها وقسوتها ؛ لدلالته على فرط الحيرة والذهول، وشدة الاضطراب والقلق، وعمق المفاجأة وعظم تأثيرها في نفس الشاعر .

وقرينة هذا – من وجه في صدر البيت – من صيغة الطلب التي جاءت الجملة المصدرة بالاستفهام علة لها : " تبصر خليلي "، وما يتوارى خلفها من معاني الاستجداء والاستعطاف التي تعكس عمق الإحساس باليأس والضيق، وغاية الضعف والوهن، وشدة الحزن والكآبة .

ومن دخول أداة الاستفهام – من وجه آخر – على الفعل المضارع من الرؤية " ترى " الذي يشي بفرط التلبس بالفعل، والشروع في الإبصار وقت الطلب، أو يستحضر المشهد برمته شاخصا أمام العين، حتى كأن الشاعر يعيش بالفعل وقائع اللحظة التي ترتد إلى عشرين سنة خلت، وإذا المرئي في صدر الجملة المعللة من معطيات ذلك المشهد الحالم : " ظعائن " اتخذن هيئة الرحيل وبدأن مسيرته .

وتتوالى عناصر المشهد وحركة الركب باعتبارها معمولا لفعل الرؤية المسئول عنها من قبل الشاعر الذي يرى هو وقائعها بعين الارتداد والاستعادة، فتتشكل من هذه وتلك أدوات الاستغراق في الواقع المنقضى لأمد محدود، وهذا يعد ضربا من التغييب للوعي المتعلق باللحظة الراهنة، وهي حالة شعورية أو عقلية من شأنها أن تفرض على الإنسان الإحساس بالضعف، والاحتماء بالآخرين ممن يثق بهم، ويوقن في إخلاصهم، وهذا ما بدا واضحا حين لجأ الشاعر إلى خليليه كي يستعين ببصريهما، ويعول على رؤيتهما(٢).

والمقام في أبيات الأعشى مقام تلطف وتودد، مشوب بلوم وعتاب لهريرة التي صدت عن الشاعر، وامتنعت من كلامه ؛ لأسباب وعلل ظاهرية، وقشور غير جوهرية .

وسوق هذه العلل وتلك الأسباب مساق الإنشاء بإخراج الجملة التعليلية في ثوب الاستفهام: " أأن رأت رجلا أعشى ....."، والانتحاء بها هذا المنحى هو الذي يتناغى مع طبيعة الموقف،

---

(١) ينظر شرح الكافية في النحو للرضى ٢٥١/٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ، وشرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهري ٢٤٧/٢ ، دار إحياء الكتب العربية ، لعيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، بدون تاريخ .

(٢) ينظر كلاسيكيات الشعر العربي . المعلقات العشر . دراسة في التشكيل والتأويل . د/ صلاح رزق ١٥٥/٢ .

ويتطابق مع خصوصية المقام الذي أوغل في الغرابة والبعد، وحاد عن النصفة حين صدت هريرة عن الشاعر، وتجافت عن حديثه لتلك الأسباب التي صورتها هذه الجملة التعليلية، فما كان ذلك لأسباب حقيقية مقنعة، ولا لعلل جوهرية نافذة يمكن أن تنال من حقيقة الرجولة المرجوة في الرجل، أو تتعلق بصادق عاطفته أو إخلاص موته ؛ لدلالة الاستفهام على أن الأمر بمعرض من الشك والارتياب، والتردد والاحتمال، أو خرج مخرج التعجب الذي يثير الدهشة والاستغراب، ويدعو إلى الاستعظام؛ إذا ما صدق التوقع، وكانت تلك القشور والسفاسف هي علة الصد حقيقة من منظور هريرة .

وخلاصة ما سبق أن الجملة الإنشائية التي خرجت مخرج العلة في المواضع السابقة جاءت مترعة بكثير من المعاني والدلالات، مفعمة بمتناقض المشاعر والانفعالات التي تتوافق في قوتها وشدتها مع قوة المقامات التي صورتها هذه الجمل وشدتها، وذلك على النحو الذي سبق تفصيله وتحليله .

فإذا انتقلنا إلى بناية الجملة المعللة في المواضع السابقة نبحثها ونتأملها لنرصد خصائصها، ونستخلص سماتها وشياتها التعبيرية يثير اهتمامنا أن مجيء هذه الجملة في مواقعها مفصولة غير معطوفة هو أبرز خصائصها وأظهرها، وراجع – إن شئت – قول عمرو : " متى كنا لأمك مقتوينا "، وقوله : " ألما تعرفوا منا اليقينا – ألما تعرفوا منا ومنكم ....."، وعاود قول زهير : " هل ترى من ظعائن ......"، وقول الأعشى : " أأن رأت رجلا أعشى .... " تجد هذه الجمل كلها قد خلت من كل عاطف لفظي أو ظاهري يربطها بالجملة السابقة عليها، وإنما ارتبطت بها بوثاق داخلي، حيث تنزلت مما قبلها منزلة الجواب من السؤال؛ بما أثارته الجملة السابقة عليها في أنفس المستمعين من تساؤل عن سبب الحكم وعلته، فجاءت مفصولة غير معطوفة للجواب عما قدر وقوعه في أنفس المستمعين.

وقرينة هذا من وقوع الجملة التعليلية في كل المواضع السابقة في إثر أسلوب طلبي يتنزل به السامع منزلة السائل الطالب ما يزيل شكه وتردده، وإن شئت برهانا على ذلك فراجع قول عمرو : " متى كنا لأمك مقتوينا " وقوله – أيضا – : " ألما تعرفوا منا اليقينا – ألما تعرفوا منا ومنكم ..." تجد كلا منها قد وقع في إثر أسلوب الأمر الذي جاء في الموضعين بصيغة اسم فعل الأمر، أما الأول فقوله: "رويدا"، بمعنى : دع التهديد والوعيد وأمهله(١)، وأما الثاني فقوله : " إليكم يا بني بكر إليكم"، بمعنى : تنحوا وتباعدوا عن مساماتنا، وارجعوا عن ذلك(٢) .

وراجع قول زهير : " هل ترى من ظعائن ... "، وقول الأعشى : " أأن رأت رجلا أعشى .... " تجد قول زهير قد وقع بعد أمر صريح : " تبصر خليلي "، ووقع قول الأعشى في إثر أسلوب الاستفهام الذي حذفت أداته : " حبل من تصل"؛ ليثير الطلب في المواضع السابقة في

---

(١) ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص١٦٠ .

(٢) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٤١٣ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص١٦٤ .

أنفس المستمعين وابلا من التساؤلات والاستفسارات عن سبب الحكم وعلة منشئه، فتأتي الجملة التعليلية مصدرة بالاستفهام لتفي بكل هذه المتطلبات، وتلبي كل هذه الرغبات والنوازع التي أثارها الطلب السابق .

والذي يعاود هذه المواضع بالتأمل مرة أخرى يجد أن خروج الجملة المعللة مخرج الفعلية كثيرة القيود والمتعلقات هو أحد أبرز خصائص بنائها، وأظهر سماتها التركيبية في جميع المواضع – أيضا .

إما في صورة الفعل الماضي كما في قول عمرو بن كلثوم : " متى كنا لأمك مقتوينا "، وكما في قول الأعشى : " أأن رأت رجلا أعشى .... "، وذلك للدلالة على تحقق وقوع الحدث وحصوله في الزمان الماضي، أما في قول عمرو فلتأكيد نفي الخدمة، وتقرير عدم حصولها(١)؛ بقرينة إيثار الفعل الماضي من الكون خاصة : " كنا " ؛ زيادة في التأكيد والتحقيق، والتثبيت والتمكين ؛ لدلالته على امتداد هذه الكينونة المنفية، وأنها ضاربة بجذورها في أعماق الزمن السحيق.

وقد تضافر مع دلالة الفعل السابقة دلالة إسناده إلى النون الدالة على الجمع، وما وراء هذا الإسناد من معاني الاستعلاء والعظمة، والأنفة والكبرياء التي تتناسب مع مقام الإنكار ؛ لدلالتها – من وجه – على فرط ثقته بنفسه، وإدلائه بقوة موقفه، وأن ما هم عليه من عزة وإباء إنما كان عن جدارة واستحقاق .

ودلالتها –من وجه آخر– على أنه لا يأبه لعمرو بن هند، ولا يقيم وزنا لتهديده.

وقد تقدم الجار والمجرور : " لأمك " على الخبر " مقتوينا " تعجيلا بإهانة عمرو وإساءته، حيث ذكره بما يعاب به ويذم، ومراعاة لتناغم الإيقاع، وتناسق النغم في قوافي المعلقة التي بنيت على ألف الإطلاق المتولدة عن إشباع حركة الفتحة قبلها على روى النون .

وأما في قول الأعشى : " أأن رأت رجلا أعشى .... " فلتحقيق وقوع الرؤية، وتقرير حصولها في الزمن الماضي – أيضا – ؛ تنبيها على خطأ هريرة في تصورها، وتأكيدا على قصر نظرها، وعدم سداد رؤيتها، وأنها ما كان ينبغي لها أن تصد عنه، أو أن تمتنع من كلامه لهذه العلل الظاهرة، أو لتلك الأسباب التافهة التي لا تقدح في صدق مودته، ولا تعكر صفو مشاعره .

وقد أمعن الشاعر في تصوير خطأ هريرة، وبالغ في ذلك حين آثر في معمول فعل الرؤية السابق كلمة : " رجلا "، وحين جاء بها مفردة منكرة ؛ ليومئ بها إلى معاني التفخيم والتعظيم، وغاية الإكبار للذات الشاعرة .

وحين نعت هذه النكرة بالوصف : " أعشى "، المنعوت هو الآخر بجملة: "أضربه ريب المنون ودهر مفند خبل " ؛ لدلالة كل هذه النعوت – إلى جانب ما وراءها من تصوير سوء الحال

(١) إذ الاستفهام الإنكاري يئول معناه إلى النفي .

ورثاثة الهيئة – على فرط تحليه بالحيدة والموضوعية في الحكم، حتى كأنه يعالج قضية شخص آخر في تجرد وإنصاف .

وحين أسند الفعل من الإضرار إلى : " ريب المنون "، وذلك على طريقة المجاز العقلي، من إسناد الفعل إلى سببه ؛ للمبالغة في قوة تأثير السبب وفاعليته، والدلالة على عمق الأثر المترتب عليه وشدته .

وكذلك حين أسند الإضرار – أيضا – إلى : " دهر مفند خبل " ؛ إذ هو معطوف على : " ريب المنون " ومشارك له في الحكم الإعرابي، وحين أسند: "مفند خبل " إلى ضميري الدهر ؛ فإن فيهما ضميرين يعودان إليه، إسنادا مجازيا– أيضا – لكن بعلاقة الزمانية ؛ للإشارة في الأول إلى سطوة الزمان وقسوته، وقوته وشدته، وعمق أثره، وبالغ تأثيره في الحياة وفي الأحياء .

والدلالة في الثاني على أن الفساد والخبل : " الجنون " قد عم وطم، حتى تجاوز العقلاء إلى الزمان نفسه، فصار يسعى هو الآخر في الإفساد والجنون؛ لتتعانق كل هذه الوسائل على تحقيق خطأ هريرة وتأكيده، وتقرير فساد موقفها وتصويره حين صدت عنه، وإلا فهل ينال من قدر الرجل ورجولته ما يصيبه رغما عنه من تقلبات الدهر، ونوائب الحدثان التي يخاطر من خلالها بحياته حينا بعد حين؟ وهل يحاسب الرجل على فساد الدهر، وما يلقى به من دروب الخبل والجنون؟!.

وإما في صورة الفعل المضارع، وذلك كما في قول عمرو بن كلثوم : " ألما تعرفوا منا اليقينا "، وقوله – أيضا – : " ألما تعرفوا منا ومنكم ..... "، وكما في قول زهير : " هل ترى من ظعائن ..... "، وذلك للدلالة في موضعي عمرو على تجدد المعرفة وحصولها مرة بعد مرة، وحالا بعد حال، كلما عنت أسبابها، ودعت مقتضياتها في ساحات الوعي، وحومات القتال، ولا شك في أن صياغة العبارة على هذا النحو هو الأبلغ في التهديد، الأدخل في الوعيد ؛ لدلالته على كثرة وقائع بني تغلب مع بني بكر بن وائل، وشهرة أيامهم فيهم .

وقد تعانق مع صيغة المضارع في تصعيد نبرة التهديد، وإذكاء نار الوعيد إخراج العلتين السابقتين مخرج الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال ؛ زيادة في تفخيم الأمر وتهويله، وتفظيعه وتضخيمه ؛ حيث ساق الشاعر تهديده – أولا – مبطنا، وفي صورة مجملة، تكتنفها غلالة رقيقة من الإبهام والغموض في قوله : " ألما تعرفوا منا اليقينا "، دون أن يفصح عن هذا اليقين الذي حقق معرفتهم إياه، ثم جاءت العلة الثانية : " ألما تعرفوا منا ومنكم.... " تفصيلا للعلة الأولى، وإيضاحا لإبهامها، فتقرر التهديد، وتأكد الوعيد ؛ لبروز المعنى في معرضين، وخروجه في صورتين .

وقد زاد المقام فخامة وهولا، وبعدا في صنعة المعنى وغورا تعلق الفعل المضارع من المعرفة بالمفعول : " كتائب " منكرا، ومجموعا جمع كثرة، ومقيدا بالنعت الجملة التي جسد فيها الفعلان " يطعن ويرتمينا " من خلال بنية كل منهما وإيقاعه حركة المطاعنة والارتماء من الجانبين

المتقاتلين، وما أضفاه ذلك كله على المشهد من ظلال التعظيم والتهويل، وما أثاره في النفس من مشاعر الرهبة، وبواعث الخوف من قوة تلك الكتائب، وشدة بأسها وسطوتها .

ولاستحضار المشهد في قول زهير : " هل ترى من ظعائن .... " ووضعه برمته أمام عيني النظارة، حتى كأن السامع يرى ويشاهد، والدلالة على فرط تلبس خليليه بالإبصار، وشروعهما في التنفيذ وقت الطلب، وهذا في مقام إظهار شدة الوجد، ونهاية التدله أقوى وأبلغ ؛ لدلالته على شدة حيرته، وغاية ذهوله واندهاشه، حتى ظن المحال لفرط الصبابة والوجد ممكنا ؛ لأن كون هذه الظعائن بحيث يراهن خليله بعد مضي عشرين سنة بالعالية من فوق جرثم، وهو موضع ماء ببني أسد محال وممتنع .

وزيادة " من " الداخلة على " ظعائن " منكرة ؛ للمبالغة في تأكيد أمر هذه الرؤية، والإلحاح الزائد على حصولها وتحققها .

وأخيرا: فإن تنوع أدوات الاستفهام المعبر بها في صدر الجملة المعلل بها ما بين اسمية وحرفية، وبين ما هو للتصور وما هو للتصديق هو كذلك من أبرز خصائص بناء الجملة التعليلية في هذا المحور، وإن شئت دليلا على ذلك فراجع موضع معلقة عمرو الأول : " متى كنا لأمك مقتوينا "، تجد أن أداة الاستفهام المستعملة، وهي اسم الزمان : " متى " هي الأوفق دون غيرها بمقتضى حال الشاعر في الاستخفاف بعمرو بن هند ملك الحيرة، والتهوين من شأنه، وعدم المبالاة أو الاعتداد بملكه ؛ لدلالتها على الزمان المبهم، كأنه أراد أن يقول له : لم نكن في أي وقت يا عمرو خداما لأحد، حتى تكون أمي خادمة لأمك .

وراجع قول زهير : " هل ترى من ظعائن " تجد أن الأداة المستعملة في التعليل هي " هل "، وقد جاءت في موضعها – هنا – على نحو من الدقة والإصابة ؛ إذ تستخدم في الغالب فيما يتوقع فيه الجواب بالنفي، ورؤية الخليل تلك الظعائن بالعالية من فوق ماء جرثم بديار بني أسد بالغ في الإحالة الغاية، ومجاوز في البعد حد النهاية، وقد ألمح سيبويه إلى هذا المعنى في باب الحروف التي لا يليها إلا الفعل، قال : " فمن تلك الحروف : " قد " لا يفصل بينها وبين الفعل بغيره، وهو جواب لقوله : " أفعل ؟ " كما كانت : " ما فعل " جوابا ل " هل فعل ؟ " ؛ إذا أخبرت أنه لم يقع، و " لما يفعل، وقد فعل " إنما هما لقوم لا ينتظرون شيئا(١) .

وأما الأداة المستعملة في موضعي عمرو الثاني والثالث : " ألما تعرفوا منا اليقينا – ألما تعرفوا منا ومنكم .... "، وفي قول الأعشى : " أأن رأت رجلا أعشى ..... " فهي الهمزة خاصة، وقد أصاب بها الشاعران موقعها في المواضع الثلاثة أتم إصابة ؛ إذ المعنى في هذه المواضع على التحقيق والتثبيت ؛ لتحقيق المعرفة وتأكيدها في موضعي عمرو ؛ بقرينة دخول الهمزة على " لما "

---

(١) الكتاب لسيبويه ٤٥٨/١-٤٥٩ ، كما ينظر كتاب التطور النحوي للأستاذ برجشتراسر ص١٠٩ ، مطبعة السماح ١٩٩٢م .

النافية، المؤذنة – من وجه – بالتوقع والحصول، والتي أشرب الاستفهام بها – من وجه آخر – غرض التقرير، بمعنى التحقيق والتثبيت، وهذا في مقام التهديد أبلغ ؛ لدلالته – أولا – على قدرة المهدد في إنفاذ ما هدد به وإيقاعه، ودلالته – ثانيا – على ثقة المتكلم بنفسه، وإدلائه بقوة موقفه ؛ وأن المخاطب بالتهديد أعلم منه بحقيقة الأمر، ومن ثم فهو يطلب إليه الجواب بحسب الظاهر .

ونداءه – ثالثا – على عجز الخصم وضعفه، وهوان أمره، وحقارة شأنه، وأنه مما لا يؤبه له، ولا يعتد به .

وقد كان لتكرار أداة الاستفهام والنفي معا، وتكرار الفعل المضارع " تعرفوا "، وكذلك تكرار المجرور " منا "، أثر بارز في تصعيد نبرة التهديد، وإذكاء لغة التحذير، وإضفاء مزيد من مشاعر السخرية والاستخفاف على الموقف، كأن الشاعر أراد أن يقول : أما زلتم يا بني بكر بعد أن تبين لكم اليقين بأبعاد الخطر المحدق بكم تريدون أن تروا كيف يكون حال كتائبنا وكتائبكم عند اللقاء .

ومن وجه آخر : فإن وضع المجرورين : " منا ومنكم " متجاورين كل واحد منهما بإزاء الآخر وفي مقابلته لمما يشير إلى حدة المفارقة، وعمق الفجوة التي يؤكدها الشاعر بين مكانة قومه ومكانة المخاطبين الذين لا ينبغي لهم أن يطمحوا إلى مطاولة الشاعر وقومه .

وتحقيق الرؤية وثبوتها في موضع الأعشى : " أأن رأت رجلا أعشى ..... "؛ بقرينة دخول الهمزة على: " أن " المصدرية التي تلبست بالفعل الماضي من الرؤية خاصة " أأن رأت" .

والرؤية – هنا – بصرية، و" أن " وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب على نزع الخافض ؛ إذ إن أصل التركيب : أمن رؤية رجل أعشى(١)، وجاء نزع الخافض تعجيلا بتنبيه هريرة إلى بالغ خطئها في صدها عن كلام الشاعر ؛ وإعلاما بضيق صدره، وشدة تبرمه من هذا الموقف الذي بنته على رؤية قاصرة، وعلى نظرة عجلى غير سديدة، ولو ذكر الخافض لفاتت هذه الدلالات، لأن ذكره يؤدي إلى ثقل العبارة، وبطء وثوب المعنى المراد إلى القلب .

وإنما برزت العبارة المعلل بها في هذا المعرض الذي اقترنت فيه أداة الاستفهام ب " أن " المصدرية الداخلة على الفعل الماضي ؛ للجمع في الإفادة بين دلالتين : دلالة باعتبار الظاهر الذي خرجت عليه الجملة، وهي تحقق وقوع الرؤية وحصولها فيما مضى، وذلك حسبما سبق تفصيله، ودلالة باعتبار المصدر الذي يئول إليه التركيب، كما سبق بيانه، وهي إفادة ثبوت الرؤية ودوامها ؛ لتتعانق الدلالتان على تصوير بالغ خطأ هريرة في تصورها، ونهاية قصر نظرها في حكمها، وتأكيد عدم سداد رؤيتها، وأنها ما كان ينبغي لها أن تصد عنه، وتمتنع عن كلامه لهذه العلل الظاهرة، والأسباب التافهة ؛ فإن الهمزة من أدوات الاستفهام إنما تستخدم في الغالب لما يتوقع فيه الإثبات .

---

(١) ينظر الكتاب لسيبويه ١٥٤/٣ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون .

" المحور الثامن "

" خصائص بناء الجملة التعليلية التي خرجت مخرج الجواب عن سؤال مضمر"

خروج الجملة التعليلية مخرج الجواب عن سؤال مضمر في النفس هو أكثر صور التعليل دورانا في شعر المعلقات، وإن لم يكن نصا صريحا في الدلالة على العلية ؛ لأن مبناه على أمر تقديري يعتبره المتكلم في المتلقي ؛ حيث بلغت مواضعه في هذا الشعر ما يزيد على الأربعين موضعا(١).

والذي يتأمل في هذه المواضع للتعرف على شياتها وسماتها يجد أن أبرز خصائص بناء الجملة التي خرجت هذا المخرج أنها تجيء مفصولة عما قبلها، غير معطوفة عليه، وذلك على طريقة الاستئناف البياني – شبه كمال الاتصال – الذي تنزلت فيه الجملة التعليلية منزلة الجواب مما قبلها، وهذا أمر طبعي ؛ إذ لا يعطف الجواب على السؤال ؛ لما بينهما من الاتصال والربط الذاتي المنافي للعطف، أو لما بينهما من كمال الانقطاع ؛ إذ السؤال إنشاء، والجواب إخبار(٢)، حيث تثير الجملة المعلة – بسبب ما يلفها من غيوم رقاق، وظلال شفيفة، أو بسبب ما يتلبس بها من نوع غرابة ودهشة – في أنفس المتلقين فيضا من التساؤلات والاستفسارات عن سبب الحكم المذكور وعلته، أو التعرف على ما يزيل الغربة، ويدفع أسباب الدهشة، ويبقى السؤال مكنونا في منطقة الظل، فلا تبوح به النفس، فتأتي الجملة التعليلية – حينئذ – مفصولة غير معطوفة، لتطفئ لهيب الشوق المستعر، وتروي عطش الوجدان الملتهب، وتجيب عما عساه أن يكون قد قدر وقوعه في أنفس المستمعين(٣) .

وتأكيد هذا المنحى في التحليل من وجهين؛ الأول: من وقوع الجملة التي خرجت هذا المخرج – في الغالب– في أعقاب الطلب بصوره المختلفة، أو في أعقاب ما يشبهه كالنفي مثلا، أو وقوعها في إثر بعض أساليب الإنشاء غير الطلبي؛ فإن العرف البلاغي في مثل هذه التراكيب يجري معها غالبا على تنزيل المخاطب منزلة السائل الطالب ما يزيل تردده وشكه، ويدفع عنه أسباب الدهشة والاستغراب .

وإن شئت تبيانا لذلك فراجع قول امرئ القيس :

وَيَومَ دَخَلتُ الخِدرَ خِدرَ عُنَيزَةٍ   فَقالَت لَكَ الوَيلاتُ إِنَّكَ مُرجِلي(٤) .

---

(١) ولعل كثرة هذه المواضع هي السبب الدافع إلى عدم إيرادها بصورة مجملة في أول المحور، كما كان الشأن في المحاور السابقة ، وإنما يكتفي البحث بإيرادها عند ذكر الخصائص وتحليلها، تحاشيا عن التطويل الزائد عن الحد .

(٢) ينظر شروح التلخيص ٣/٥٣ .

(٣) ينظر في البلاغة القرآنية . أسرار الفصل والوصل . د/ صباح عبيد دراز ص١١٥ ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م ، مطبعة الأمانة – القاهرة .

(٤) ديوان امرئ القيس ص١١ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .

فإنك تجد الجملة المعللة : " إنك مرجلي " قد وقعت جوابا عما أثاره الدعاء الواقع في حكاية القول : " لك الويلات " في أنفس المستمعين من تساؤل عن سبب دعاء عنيزة على الشاعر هذا الدعاء الغريب وعلته، مع أنه كان يركب معها في هودجها، وعلى ظهرها بعيرها، ينهل من وردها، ويقطف من جنى خدها المتورد؛ ولذلك فصلت عنها، ولم تعطف عليها .

وراجع قول طرفة :

فَذَرني وَخُلقي إِنَّني لَكَ شاكِرٌ   وَلَو حَلَّ بَيتي نائِياً عِندَ ضَرغَدِ [١].

وَقالَ ذَروهُ إِنَّما نَفعُها لَهُ   وَإِلّا تَردوا قاصِيَ البَركِ يَزدَدِ[٢] .

فإنك تجد الجملة التعليلية في البيتين : " إنني لك شاكر – إنما نفعها له " قد جاءت مفصولة غير معطوفة، وعلى طريقة الاستئناف البياني ؛ لوقوعها – من وجه – في إثر الطلب : " فذرني وخلقي – ذروه " الذي نزل به المخاطب منزلة السائل الطالب .

ولتجيب – من وجه آخر – عما أثارته الجملة الطلبية السابقة في أنفس المتلقين من تساؤل، وتميط اللثام عن سبب الحكم ومنشأ الطلب، وإخراج الكلام هذا المخرج من شأنه أن يقرر المعنى ويؤكده، ويثبته ويمكنه .

ولك أن تراجع قول عبيد :

ساعِد بِأَرضٍ إِذا كُنتَ بِها   وَلا تَقُل إِنَّني غَريبُ

قَد يوصَلُ النازِحُ النائي وَقَد   يُقطَعُ ذو السُهمَةِ القَريبُ[٣] .

وقول عمرو بن كلثوم :

قِفي قَبلَ التَفَرُّقِ يا ظَعينا   نُخَبِّرِكِ اليَقينا وَتُخبِرينا[٤].

وقوله:

أَبا هِندٍ فَلا تَعجَل عَلَينا   وَأَنظِرنا نُخَبِّركَ اليَقينا[٥] .

وقول الحارث بن حلزة :

أيها الشَّافِي الُمبَلِّغُ عنا   عندَ عمروٍ وهلْ لذاك انتِهَاءُ

إنَّ عمْرًا لنا لديْهِ خلالٌ   غيرَ شكٍّ في كُلِّهِنَّ البلاءُ[٦] .

---

(١) ديوان طرفة بن العبد ص٢٧ ، تحقيق : محمد مهدي ناصر الدين ، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) ديوان طرفة ص٢٨ .

(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ص٢٢ ، شرح : أشرف أحمد عدرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م ، دار الكتاب العربي ، بيروت.

(٤) ينظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص٢٧٦ .

(٥) المرجع نفسه ص٢٨٠ .

(٦) ديوان الحارث بن حلزة اليشكري ص ٧٢ .

وتأمل إن شئت قول النابغة :

وَخَيِّسِ الجِنَّ إِنّي قَد أَذِنتُ لَهُم ... يَبنونَ تَدمُرَ بِالصُفّاحِ وَالعَمَدِ[١] .

وقول الأعشى :

وَدِّع هُرَيرَةَ إِنَّ الرَكبَ مُرتَحِلُ ... وَهَل تُطيقُ وَداعاً أَيُّها الرَجُلُ[٢].

وقوله – أيضا – :

وَاِسأَل قُشَيراً وَعَبدَ اللهِ كُلَّهُمُ ... وَاِسأَل رَبيعَةَ عَنّا كَيفَ نَفتَعِلُ

إنّا نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى نُقَتِّلَهُــــمْ ... عِنْدَ اللِّقَاءِ وَإِنْ جَارُوا وَإِنْ جَهِلُوا [٣] .

ولك أن تتأمل – أيضا – قول زهير، وهو مما سبقت فيه الجملة التعليلية بإنشاء غير طلبي تعانق فيه القسم مع صيغة المدح على إثارة تلك الحركة الداخلية في نفس المتلقى :

يَميناً لَنِعمَ السَيِّدانِ وُجِدتُما ... عَلى كُلِّ حالٍ مِن سَحيلٍ وَمُبرَمِ

تَدارَكتُما عَبساً وَذُبيانَ بَعدَما ... تَفانوا وَدَقّوا بَينَهُم عِطرَ مَنشِمِ [٤].

وشبيه به – لخروجه مخرج القسم المعقب بنفي – قول عنترة :

وَلَقَد خَشيتُ بِأَن أَموتَ وَلَم تَدُر ... لِلحَربِ دائِرَةٌ عَلى اِبنَي ضَمضَمِ

الشاتِمَي عِرضي وَلَم أَشتِمهُما ... وَالناذِرَينِ إِذا لَم اَلقَهُما دَمي[٥].

فإن الناظر في الجملة التعليلية في المواضع السابقة يرى أنها قد وقعت في إثر الطلب أمرا كان أم نهيا، أو أمرا ونهيا، أو استفهاما ونداء، أو وقعت بعد القسم المعقب بمدح أو بنفي؛ ليثير كل ذلك في مواضعه المذكورة في أنفس المستمعين تساؤلا عن سبب الحكم وعلته ؛ بتنزيل المخاطب منزلة السائل المتردد، فتأتي الجملة التعليلية على ترتيب المواضع السالفة مفصولة غير معطوفة : " قد يوصل النازح النائي..... – نخبرك اليقين وتخبرينا – نخبرك اليقينا – إن عمرا لنا لديه خلال ...... – إني قد أذنت لهم – إن الركب مرتحل – إنا نقاتلهم حتى نقتلهم – تداركتما عبسا وذبيان بعدما .... " الشاتمي عرضي ولم أشتمهما ..... "؛ لتكشف عن السبب، وتميط اللثام عن العلة، وتجيب عما عساه أن يكون قد قدر وقوعه في أنفس المستمعين، وذلك على النحو الذي تقدم تحليله في المواضع المحللة أولا .

وقد تأتي الجملة المعللة بعد غير إنشاء طلبي، أو ما يشبهه، أو بعد غير إنشاء غير طلبي، وذلك في مواضع كان مثير التساؤل في نفس المخاطب فيها هو ما اشتملت عليه الجملة المعلة

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٢١ .

(٢) ديوان الأعشى ص٥٥ .

(٣) نفس المرجع ص٦١ .

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى ص١٠٥-١٠٦ .

(٥) ديوان عنترة بن شداد ص٢٠ ، تحقيق : حمدو طماس ، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م ، دار المعرفة ، بيروت .

من أمر عجيب، يبعث على الدهشة والاستغراب، أو لخروجها مخرج الإجمال الذي تتطلع معه النفس إلى التفصيل والإيضاح، وهذا يظهر بوضوح في قول امرئ القيس :

وَتُضحي فَتيتُ المِسكِ فَوقَ فِراشِها   نَؤومُ الضُحى لَم تَنتَطِق عَن تَفَضُّلِ(١).

فإن بقاء فتات المسك على فراش المرأة المذكورة إلى الضحى أمر غريب، يثير في النفس البواعث ؛ للوقوف على سببه، فجاءت جملة " نؤوم الضحى " أي: هي نؤوم الضحى ؛ لتميط اللثام عن علة هذا الأمر، وتكشف عن سببه .

ثم إن هذه الجملة المعللة لم تخل هي الأخرى من نوع غرابة، بل قد تكون أدخل في هذا الأمر من سابقتها ؛ إذ كيف لها أن تنام إلى الضحى، وتترك شئون بيتها، وتهمل تدبير أمره ؟ فجاء قوله: " لم تنطق عن تفضل " علة للعلة ؛ وليزيل هذه الغربة، ويرفع أسباب الوحشة، فهذه المرأة لا تباشر عملا، فهي لم تنتطق لتعمل ؛ لأنها مخدومة منعمة .

ويظهر في قول عبيد :

أَرضٌ تَوارَثُها شُعوبُ   وَكُلُّ مَن حَلَّها مَحروبُ

إِمّا قَتيلٌ وَإِمّا هالِكٌ   وَالشَيبُ شَينٌ لِمَن يَشيبُ(٢).

وفي قوله – أيضا – :

وَالمَرءُ ما عاشَ في تَكذيبٍ   طولُ الحَياةِ لَهُ تَعذيبُ(٣) .

فإنك تجد قوله في الموضع الأول : " إما قتيل وإما هالك " قد جاء في موقعه جوابا ببيان وتفصيل ما أجمل في قوله : " وكل من حلها محروب " الذي أثار بإجماله لواعج الشوق في أنفس المتلقين ؛ للوقوف على سبب هذا الحكم المبهم، وتفصيل إجمال هذه الدعوى العريضة التي تتمثل في أن كل من حل هذه الأرض ووجد عليها سوف تتخطفه المنية وتسلبه الحياة ؛ لأنه إما مقتول وإما هالك بالموت ولا ثالث لهما ؛ وإنما خص القتل بالذكر قبل الهلاك، مع أنه نوع منه ؛ لإظهار شناعته وفظاعته، حتى صار لذلك نوعا برأسه، وأصلا مغايرا لجنسه .

وتجد قوله في الموضع الثاني : " طول الحياة له تعذيب " قد جاء في موقعه علة وبيانا – على طريقة شبه كمال الاتصال – لهذا الحكم الغريب، والدعوى المخالفة للسنن والعرف، والحقيقة والواقع : " والمرء ما عاش في تكذيب "، فالحياة في نظر عبيد كذب كلها ؛ لذا كان طولها عذاب لمن عمر بها ؛ لما يقاسيه فيها من غير الدهر ونوائبه .

ويظهر هذا – أيضا – في قول طرفة :

وَأَيأَسَني مِن كُلِّ خَيرٍ طَلَبتُهُ   كَأَنّا وَضَعناهُ إِلى رَمسِ مُلحَدِ

---

(١) ديوان امرئ القيس ص١٧ .

(٢) ديوان عبيد الأبرص ص٢٠ .

(٣) نفس المرجع ص٢٣ .

عَلى غَيرِ ذَنبٍ قُلتُهُ غَيرَ أَنَّني نَشَدتُ فَلَم أُغفِل حَمولَةَ مَعبَدِ [١] .

حيث جاء قوله : " على غير ذنب قلته ..... " جوابا عما عساه أن يكون قد أثاره قوله : " وأيأسني من كل خير طلبته ......" في أنفس المستمعين من تساؤل حول أسباب إياس الشاعر من كل خير طلبه من ابن عمه، حتى كأنما وضع طلب رفده إياه إلى قبر رجل مدفون باللحد، فلا يرجو خيره، ولا ينتظر رده، أكان هذا الإياس الذي يبدو غريبا بين ذوي القربى والأرحام من جناية اقترفها الشاعر في حقه أم لا ؟ فجاءت الجملة المذكورة لتكشف عن السبب، وتميط اللثام عن العلة .

كما يظهر هذا – أيضا – في قول عمرو :

وَرِثنا المَجدَ قَد عَلِمَت مَعَـــــدٌّ نُطاعِنُ دونَهُ حَتّى يَبينا[٢] .

وقوله : وَإِنّا سَوفَ تُدرِكُنا المَنايا مُقَدَّرَةً لَنا وَمُقَدَّرينـــــا [٣].

وقول الحارث :

ثُمَّ حُجراً أَعني اِبنَ أُمِّ قَطَامٍ وَلَهُ فَارِسِيَّةٌ خَضراءُ

أَسَدٌ في اللِقاءِ وَردٌ هَموسٌ وَرَبيعٌ إِذا شَنَّعَت الغَبراءُ[٤] .

وقول زهير :

رَأَيتُ المَنايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِب تُمِتهُ وَمَن تُخطِئ يُعَمَّر فَيَهـــــرَمِ[٥].

وقول النابغة :

أضحتْ خَلاء وأضحى أهلُهَا ارتحلُوا أَخْنَى عليها الذي أَخْنَى علَى لِبَدِ[٦].

وقوله :

فَتِلكَ تُبلِغُني النُعمانَ إِنَّ لَهُ فَضلاً عَلى الناسِ في الأَدنى وَفي البُعْدِ[٧].

وقول عنترة :

فَشَكَكتُ بِالرُمحِ الأَصَمِّ ثِيابَهُ لَيسَ الكَريمُ عَلى القَنا بِمُحَرَّمِ[٨] .

وقول الأعشى :

كَلّا زَعَمتُم بِأَنّـــا لا نُقاتِلُكُـــــم إِنّـــــا لِأَمثالِكُم يا قَومَنا قُتُلُ

---

(١) ديوان طرفة بن العبد ص٢٦ .

(٢) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص٢٨٢ .

(٣) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٣٧٤ .

(٤) ديوان الحارث بن حلزة ص٧٣ .

(٥) ديوان زهير ين أبي سلمى ص١١٠ .

(٦) ديوان النابغة ص١٦ .

(٧) نفس المرجع ص٢٠ .

(٨) ديوان عنترة ص١٧ .

نَحنُ الفَوارِسُ يَومَ الحِنوِ ضاحِيَةً جَنبي فُطَيمَةَ لا ميلٌ وَلا عُزُلُ[(١)].

وقول لبيد :

صادَفنَ مِنها غِرَّةً فَأَصَبنَها إِنَّ المَنايا لا تَطيشُ سِهامُها[(٢)] .

وقوله:

وَجَزورِ أَيسارٍ دَعَوتُ لِحَتفِها بِمَغالِقٍ مُتَشابِهٍ أَعلامُهَـا

أَدعو بِهِنَّ لِعاقِرٍ أَو مُطفِلٍ بُذِلَت لِجيرانِ الجَميعِ لِحامُها[(٣)].

فإنك إن تأملت قول زهير – مثلا – : " رأيت المنايا خبط عشواء "، وجدت به قدرا من الإجمال يقتضي التفصيل، ومسحة من الغموض والإبهام تتطلب البيان والإيضاح، هذا إلى جانب ما تشتمل عليه الجملة من حكم عجيب، يثير الدهشة، ويدعو إلى الاستغراب، وهو كون المنايا تعشو بلا قصد، كالناقة العشواء، وهو ما يهيج أشواق النفس وتطلعاتها للوقوف على تفصيل الحكم وبيانه، والكشف عن سببه وعلته، فعندئذ يجيء قوله : " من تصب تمته ...." ليفي بحاجات النفس الظمأى ومتطلباتها، ويجيب عما عساه أن يكون قد وقع في القلب، وهمس به الوجدان .

وكذلك قول لبيد :

" أدعو بهن لعاقر أو مطفل ...." جاء جوابا بالتفصيل والإيضاح، وبيانا لعلة الحكم الماثل في قوله : " وجزور أيسار دعوت لحتفها ......" الذي أثار في النفس تساؤلا عن سبب افتخار الشاعر بدعوته ندماءه لنحر هذا الجزور، وعقره بأزلام متشابهة الأجسام، وسهام ميسر يشبه بعضها بعضا[(٤)]؛ لما يلفه من غموض رقيق، وإبهام شفيف يثير في النفس تطلعا إلى البيان والإيضاح، أو لما يتضمنه من حكم غريب، وشأن عجيب ؛ حيث يقوم بنحرها للضيف والجيران بعد أن أعدها وهيأها لتقامر الأيسار عليها .

وإنما خص الشاعر من هذه الجزر العاقر والمطفل ؛ للمبالغة في شدة جوده، وفرط كرمه، وسماحة نفسه ؛ فإن العاقر : وهي التي لا تلد أسمن وأكثر لحما، والمطفل – وهي ذات الولد – أنفس، وأغلى ثمنا[(٥)] .

وكذلك الشأن – أيضا – في قول النابغة : " أخنى عليها الذي أخنى على لبد " جاء في موضعه جوابا عما أثاره قوله : " أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا " في أنفس المستمعين من تساؤل عن سبب خلاء الديار، وعلة ارتحال أهلها عنها، فالدهر قد تولى تغيير معالمها وطمس

---

(١) ديوان الأعشى ص٦٣ .

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري ص١١١ .

(٣) نفس المرجع ص١١٥ ، والمغالق : القداح يضرب بها ، والأعلام : العلامات .

(٤) ينظر شرح القصائد العشر للتبريزي ص٢٤٠ .

(٥) ينظر المرجع نفسه ص٥٨٨-٥٨٩ .

آياتها، أليس هو الذي أتى على لبد، وهو آخر نسور لقمان، وقطع عليه حياته وأفسدها بعد أن عمر مائتي عام[١] .

وكذلك تجد الأمر نفسه في قول عمرو : " نطاعن دونه حتى يبينا "، وقول الحارث : " أسد في اللقاء ورد هموس "، وفي قول عنترة : " ليس الكريم على القنا بمحرم "، وقول النابغة : " إن له فضلا على الناس في الأدنى وفي البعد "، وفي قول الأعشى : " نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية ....."، حيث وقعت الجمل السالفة الذكر في مواضعها من المعلقات جوابا عما أثاره الكلام السابق عليها في أنفس المستمعين من تساؤل، وما همس به وجدانهم من تمتمات، وبيانا بتفصيل السبب والعلة لما تضمنه من حكم قد بدا مبهما أو مجملا بعض إبهام وإجمال، أو غريبا مثيرا للدهشة، وباعثا على الاستغراب .

وأما الوجه الثاني فيتمثل في وقوع " إن " التي تغني غناء الفاء في ربط الكلام بعضه ببعض في صدر الجملة المعلل بها في كثير من المواضع، يقول عبد القاهر : " .... فإذن، إنما يكون الذي ذكرنا في الجملة من حيث اقتضاء الفاء، إذا كان مصدرها مصدر الكلام يصحح به ما قبله، ويحتج له، ويبين وجه الفائدة فيه، ألا ترى أن الغرض من قوله : " إن ذاك النجاح في التبكير " جله أن يبين المعنى في قوله لصاحبه : " بكرا " وأن يحتج لنفسه في الأمر بالتبكير، ويبين وجه الفائدة فيه "[٢] .

وسوف يأتي تفصيل ذلك لاحقا في الخصيصة التالية إن شاء الله تعالى.

على أن البحث حين يعاود الجملة التعليلية التي خرجت مخرج الجواب عن سؤال مضمر في النفس بالتأمل يتراءى له منها خصيصة بنائية أخرى تعد من أبرز خصائصها في هذا المحور، وهي بروزها في السواد الأعظم من مواضعها في صورة خبرية، وفي لباس الاسمية المؤكدة في بعض المواضع، أوفى لباس الاسمية أو الفعلية الخالية من التأكيد في بعض المواضع الأخرى .

وحيث برزت الجملة المعلل بها في معرض الخبرية، وفي لباس الاسمية المؤكدة يثير اهتمامك أن وسيلة التوكيد المستخدمة هي " إن " في الغالب؛ ليتعانق التوكيد المتناسل من " إن " بدلالة الوضع ؛ لنيابتها مناب تكرير الجملة مرتين[٣]، مع التوكيد الحاصل بطريق اللزوم من إفادة الجملة الاسمية معنى الثبوت والدوام – على إزالة ما بدا على ملامح المخاطب من أمارات الشك والتردد، وشفاء ما تردد في أعماق نفسه، وغائر وجدانه من همهمات وتمتمات نزل بها منزلة السائل

---

(١) ينظر شرح القصائد العشر بتحقيق الإمام محمد الخضر حسين ص٤١٧ ، وديوان النابغة بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ص١٦

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص٣٢٣ .

(٣) ينظر اللباب في علل البناء والإعراب للعكبري ٢٠٥/١ ، تحقيق : محمد غازي ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، كما ينظر الكليات معجم في الفروق والمصطلحات اللغوية للكفوى ص٢٦٩ ، تحقيق : عدنان درويش ، ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، بدون تاريخ .

الطالب ؛ لذا كان التأكيد ب " إن " هو الذي يتوافق مع المقام، ويتطابق مع مقتضى الحال ؛ بمعونة القرائن، إذ تجد الجملة التعليلية في غالب المواضع التي خرجت فيها مخرج الاسمية المؤكدة ب " إن " قد سبقها في نسق العبارة المعلة طلب، أو ما يشبه الطلب، كالنفي مثلا، وراجع قول امرئ القيس : " فقالت لك الويلات إنك مرجلي " تجد جملة : " إنك مرجلي " قد وقعت تعلة لقوله: " لك الويلات "، وهو دعاء في المعنى، وإنما وضعت الخبر موضعه ؛ للدلالة على فرط اهتمامها بتحققه، وشدة رغبتها في حصوله، كأنه قد وقع بالفعل، فهي تخبر عنه حاصلا، وهذا الطلب في المعنى كأنه قد أوقع في نفس الشاعر، وفي نفس كل سامع تطلعا للوقوف على سبب هذا الدعاء الغريب، كأن الظاهر من حال امرئ القيس التوجه إلى عنيزة مخاطبا : لماذا تبادرين بالدعاء علي بالويل والثبور، وأنا إلى جوارك وفي خدرك[1] ؟ فجاء الجواب مؤكدا " إنك مرجلي " مراعاة لهذه الحال المعتبرة، أي : " تصيرني راجلة ؛ لعقرك ظهر بعيري[2] .

وراجع قول طرفة : " فذرني وخلقي إنني لك شاكر "، وقوله : " فقال ذروه إنما نفعها له"، وراجع قول الحارث : " لا تخلنا على غراتك إنا قبل ما قد وشى بنا الأعداء "، وقوله :

أيها الشانئ المبلغ عنا   عند عمرو وهل لذلك انتهاء

إن عمرا لنا لديه خلال   غير شك في كلهن البلاء

وراجع قول النابغة :

وخيس الجن إني قد أذنت لهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وقول الأعشى : " ودع هريرة إن الركب مرتحل "، وقوله :

واسأل قشير وعبد الله كلهم   واسأل ربيعة عنا كيف نفتعل

إنا نقاتلهم حتى نقتلهم   عند اللقاء وإن جاروا وإن جهلوا

وراجع قوله – أيضا –، وهو مما وقع التعليل فيه بعد النفي :

كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم   إنا لأمثالكم يا قومنا قتل

فإنك تجد الجملة التعليلية في كل هذه المواضع السابقة، وهي على ترتيب المواضع على النحو الآتي : " إنني لك شاكر – إنما نفعها له – إنا قبل ما قد وشى بنا الأعداء – إن عمرا لنا لديه خلال – إني قد أذنت لهم – إن الركب مرتحل – إنا نقاتلهم حتى نقتلهم " قد وقعت في إثر الطلب، أمرا كما في بيتي طرفة " فذرني وخلقي – ذروه "، وكما في بيت النابغة " وخيس الجن"، وكما في بيتي الأعشى الأولين : " ودع هريرة – وأسأل قشيرا وعبد الله كلهم واسأل ربيعة عنا كيف نفتعل " أو نهيا، كقول الحارث : " لا تخلنا على غراتك " أو بعد نداء واستفهام، كما في قول

---

(١) وذلك إذا كانت تخاف أن يعقر بعيرها ، ويجوز أن يكون دعاء منها له في الحقيقة ، كما تقول العرب للرجل إذا رمى فأجاد ، قاتله الله ما أرماه / ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٣٦ .

(٢) ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص١٨ .

الحارث – أيضا – " أيها الشانئ المبلغ عنا عند عمرو وهل لذلك انتهاء "، أو بعد نفي، كقول الأعشى : " كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم "، وهو ما نزل به المخاطب منزلة السائل الذي يطلب ما يزيل شكه، ويمحو تردده ؛ لذا جاءت " إن " في صدر الجملة التي نزلت منزلة الجواب لتحقيق هذه الغاية، ورعاية هذه الحال .

وقد يقترن بـ" إن " في صدر هذه التراكيب ما يزيد الكلام وكادة والمعنى تقريرا وتحقيقا، وذلك كما في قول طرفة : " فقال ذروه إنما نفعها له "، حيث اتصلت بها " ما " فكفتها عن العمل، وهيأتها لمعنى القصر والاختصاص، قصر الصفة على الموصوف قصر قلب، ليتعانق التوكيد المتناسل من دلالة القصر وضعا مع التوكيد المنبثق من دلالة الجملة الاسمية استلزاما على تدعيم موقف الشاعر الفارس الذي أعلى قيمة الفروسية انطلاقا من رؤية ذاتية، وليس استجابة لنسق قبلي اجتماعي بدا متسلطا ومهيمنا، بل مجابها ومصادما(١).

على أن وقوع " إن " في صدر الجملة المعلل بها على النحو السابق جعل الكلام يستغني عن الفاء، وجعلها تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا، فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف، ومقطوعا موصولا معا، ولو عمدت إلى " إن " فأسقطتها من صدر الجملة لم تر الكلام يلتئم، ولرأيت الجملة المعللة لا تتصل بالمعلة، ولا تكون منها بسبيل، حتى تأتي بالفاء(٢).

فدخول " إن في صدر الجملة المعللة جعلها ترتبط بما قبلها، وتأتلف معه، وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر، وصهر به(٣) .

ومن وجه آخر : فإن إخراج الجملة التعليلية التي وقعت " إن " في صدرها مخرج الاسمية المنبئة عن الثبوت والدوام يومئ إلى ثبوت مضامين هذه الجمل، ورسوخ معانيها، وأنها لا تقبل المزايدة أو الشك، فتصيير امرئ القيس صاحبته راجلة، حسبما ينطق به قوله : " إنك مرجلي " قد صار – في اعتقاد عنيزة – أمرا ثابتا، وشأنا راسخا، لظهور أماراته، وشخوص دلائله ؛ بدلالة قرينة السياق من قوله :

قال:

تَقولُ وَقَد مالَ الغَبيطُ بِنا مَعاً   عَقَرتَ بَعيري يا اِمرَأَ القَيسِ فَاِنزُلِ(٤).

وإقامة طرفة على شكر ابن عمه في قوله : " إنني لك شاكر "، وإلزام نفسه إياه شديد الثبوت والرسوخ ؛ بدلالة قوله : ولو حل بيتي نائيا عند ضرغد " فهو مقيم على شكره – مع ما فعله به –

(١) ينظر كلاسيكيات الشعر العربي . المعلقات العشر . دراسة في التشكيل والتأويل . د/ صلاح رزق ٣١٧/١ .
(٢) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص٢٧٣-٣١٦ .
(٣) ينظر نفس المرجع ص ٣١٦ .
(٤) ديوان امرئ القيس ص١١ .

ولو بعد بيته غاية البعد، ونزل عند هذا الجبل المسمى ضرغد[1]، وكان بينهم وبينه مسافة بعيدة، وشقة شاقة، وبينونة بليغة[2]، وهكذا سائر المواضع التي سبق ذكرها، ودخلت فيها " إن " على الجملة الاسمية، في إثر طلب أو ما يشبهه.

وقد تدخل " إن " في صدر الجملة الخبرية التي برزت في معرض الاسمية المعلل بها، وليست واقعة في إثر طلب أو ما يشبهه، وقد جاء ذلك في عدة مواضع، الأول في قول النابغة:

فَتِلكَ تُبلِغُني النُعمانَ إِنَّ لَهُ   فَضلاً عَلى الناسِ في الأَدنى وَفي البُعُدِ

والثاني في قول الأعشى :

إِمّا تَرَينا حُفاةً لا نِعالَ لَنا   إِنّا كَذَلِكَ ما نَحفى وَنَنتَعِلُ[3] .

والثالث في قول لبيد :

صادفن منها غرة فأصبنها   إن المنايا لا تطيش سهامها

ووراء ذلك في هذه المواضع دلالة واضحة، وإيذان صادح بإمكان استقلالية الجملة المعللة بالإفادة، وعدم ارتباطها في ذلك بالجملة المعلة ؛ لتسير في كثرة الاستعمال والتداول، وفرط الشهرة والذيوع مسير الأمثال التي يقاس إليها غيرها مما يجري مجراها في الأحول والهيئات المشابهة .

وقرينة هذا من مجيء الجملة المعلل بها في المواضع السابقة في موقع التذييل التعليلي المقرر والمؤكد لمضمون الجملة المعلة، وإن شئت بيانا لذلك فانظر في قول لبيد : " إن المنايا لا تطيش سهامها " تجد أنه قد خرج – من وجه – مخرج التذييل التعليلي المقرر والمؤكد لمضمون مشهد الإصابة المدلول عليه من جملة " فأصبنها " ؛ إذ هما في معنى واحد .

ويمثل – من وجه آخر – الحكمة التي أرسلها الشاعر فتلقفها سمع الزمان، وظلت أصداؤها تتردد على أسماعنا وألسنتنا إلى اليوم .

والواقع أن الشاعر قد ختم بهذه الجملة السائرة المشهد الأول من مشاهد تلك الصورة التي قدم من خلالها البقرة الوحشية التي شذت عن قطيعها، وخلفته وراءها؛ لتواجه مصيرها منفردة، فكان أول ما أصابها فتك الذئاب بوليدها بعد أن غفلت عنه، وتلك أقدار مقدرة، لا سبيل إلى الفرار منها، أو النجاة من براثنها[4].

وقد جاء خبر " إن " في هذا الموضع جملة فعلية ذات فعل مضارع منفي بـ" لا " خاصة : " لا تطيش سهامها " ؛ للدلالة على أن هذا دأب المنايا وشأنها الذي لا تنفك عن ممارسته مرة بعد

(١) اسم جبل بأرض عطفان ، أو اسم حرة بها / ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٢٠٩ ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص١٣٧ .

(٢) ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٨٢ .

(٣) ديوان الأعشى ص٥٩ .

(٤) ينظر كلاسيكيات الشعر العربي ، المعلقات العشر ، دراسة في التشكيل والتأويل . د/ صلاح رزق ٦٥/٢ .

مرة، وحالا بعد حال، في الماضي، والحاضر، والمستقبل، لتتعانق – أولا – هذه الدلالات السابقة مع دلالة جمع فاعل الفعل في هذه الجملة جمع الكثرة من وجه، ومع دلالة جمع اسم " إن " جمع الكثرة – أيضا – من وجه آخر – على الإيذان بتنوع أسباب المنايا وتعددها، والإعلام بكثرة دواعيها ومناشئتها، وما وراء ذلك من إيحاء بإحاطتها بالأحياء واكتنافها إياهم من كل جانب .

وتتعانق – ثانيا – على تشخيص المنايا، ورسم صورة مفزعة ومهولة لها، يبقى أثرها في النفس شاخصا حينا بعد حين .

ولك أن تعاود النظر في قول الأعشى : " إنا كذلك ما نحفى وننتعل " ؛ لترى أنه كذلك قد وقع في موقع التذييل التعليلي المقرر والمؤكد لمضمون قوله : " إما ترينا حفاة لا نعال لنا " ؛ لأن مضمونهما واحد ؛ ليصير – بذلك – مثلا يضرب للدلالة الواسعة التي تشمل تجارب الحياة برمتها : الخير والشر، الغنى والفقر، الاستقرار والرحيل، الحب والبغض، القبول والرفض، الشباب والشيب، وفي ضوء الوعي بكل هذه الثنائيات المتقابلة تتحتم المجازفة ما وجدت النفس القادرة على المجازفة، وأي نفس أقدر على المجازفة من تلك النفس التي وعت تجارب الدهر، وخبرت متناقض وجوهها(١) .

إن استقلالية الجملة المعللة على هذا النحو المشعر به وقوع " إن " في صدرها لمما يجسد – من وجه آخر – فرط ثقة الشاعر بنفسه، ويمعن في تصوير مشاعر السكينة والطمأنينة، والإحساس بالهدوء والارتياح، وذلك من خلال الإحالة على رصيد الخبرة والوعي بالماضي والحاضر، والتقلبات المتوقعة للمستقبل، وعلى هذا النحو في التحليل يجري بيت النابغة في مدح النعمان بن المنذر ؛ مقدمة للاعتذار بين يديه .

وقد يأتي التوكيد نادرا من غير طريق " إن "، وذلك كقول الأعشى :

كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم إنا لأمثالكم يا قومنا قتل .

نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية جنبي فطيمة لا ميل ولا عزل

حيث جاء التوكيد في قوله : " نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية "، الذي وقع علة على طريق الاستئناف البياني لما أثاره قوله : " إنا لأمثالكم يا قومنا قتل " في أنفس المستمعين من تساؤل عن سبب هذا الحكم المؤكد، والدعوى المغلظة – من طريق القصر بتعريف المسند " الفوارس " بالألف واللام خاصة، وهو من القصر الادعائي ؛ للمبالغة ؛ كأن الشاعر لم يعتد بفروسية الآخرين إلى جانب فروسيتهم، حتى كأنهم الجديرون بهذا الوصف دون غيرهم، وهذا في مقام الرد على من لمزهم بالعجز عن القتال والمواجهة أقوى وأدخل، وفي الفخر بما لهم من المآثر والمحامد أوفى وأبلغ ؛ لدلالته على كمال المدح، وتمام الوصف بالفروسية والشجاعة، وندائه على تجذر هذه الصفة فيهم، وثبوتها لهم في جميع الأحوال .

---

(١) ينظر المرجع السابق ٢/٤٧٢-٤٧٣ .

و" يوم الحنو " : يوم من أيام قبيلة الشاعر على شيبان، يريد أن يقول : نحن الفوارس المنتصرون علانية يوم الحنو بجانبي وادي فطيمة – وهو اسم موضع بالبحرين، انتصر فيه قومه على شيبان – حيث لم نكن ثمة فارين، ولا عزل من السلاح، وجملة " لا ميل وعزل " تذييل مقرر ومؤكد لمضمون الجملة التعليلية السابقة ؛ إذ هو في معناها ؛ إلا أنه من النوع الذي لا يجري مجرى المثل؛ لعدم إمكان استقلاليته بالإفادة، وقد فصل مما قبله ؛ لكمال الاتصال بينهما؛ لتنزله منه منزلة التوكيد المعنوي(١) .

أما حين تأتي الجملة التعليلية التي خرجت مخرج الجواب عن سؤال مقدر في لباس غير مؤكد، وسواء أكانت اسمية أم فعلية فذلك – من وجه – للمبالغة في تقرير شدة وضوح معناها وظهوره، وتأكيد نهاية ذيوعه وانتشاره .

والدلالة – من وجه آخر – على فرط قناعة المتكلم بما يخبر به، وامتلائه بمضمونه، حتى بلغ في تصوره مبلغ الحقائق، والمسلمات المشهورة التي لا يمكن أن يتطرق إليها شك واحتمال، أو جحد وإنكار .

وتأكيد هذا من قرينة السياق، ومن طبيعة المقام وخصوصية الموقف المصور ؛ فإن الجملة التعليلية حين تخرج في هذه الحلة العطل من وسائل التوكيد لا يكاد يسبقها في نسق العبارة طلب أو ما يشبهه، يتنزل به المخاطب منزلة السائل الطالب، أو الشاك المتردد الذي يحسن له تأكيد الكلام .

وإن شئت أن أقيم لك دليلا على ذلك فلك أن تنظر – أولا – فيما خرج من ذلك في معرض الجملة الاسمية، من قول امرئ القيس :

ويضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

الذي اشتمل على علتين على نهج الجواب عن سؤال مقدر، وقد برزت الأولى منهما في قول الشاعر : " نؤوم الضحى "، على تقدير : هي نؤوم الضحى، حيث وقعت هذه الجملة جوابا عن سؤال أثاره قوله : " ويضحى فتيت المسك فوق فراشها " وتبهرجت الثانية منهما في قوله : " لم تنتطق عن تفضل " الذي خرج مخرج العلة من العلة السابقة، وقد خلت العلتان السابقتان من كل وسائل التوكيد ؛ إذ لم يتقدمهما في نسق الجملة المعلة ما يقتضي التوكيد من طلب أو ما يشبهه .

كما أن خلو الجملة المعللة في الموضعين من وسائل التوكيد هو الذي يتناسب مع مقام الغزل، ومقتضى حال المحبوبة في الوصف بشدة الترف، وفرط التنعم، كأن هذه الحال التي هي عليها من النوم إلى الضحى قد صارت معلومة من أمرها، وظاهرة من شأنها، وليست بموضع يتطرق إليها فيه شك واحتمال، أو رفض وإنكار.

(١) ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٢٢٩ .

وتأكيد هذا الإثبات وبرهانه من مجيئه في صورة الاسمية ؛ للدلالة على لزوم هذه الصفة لها، وأنها قد صارت – بقرينة وزن المبالغة " نؤوم " – من سجاياها وطباعها التي لا تنفك عنها في حال من الأحوال .

وكذلك الشأن في جملة " لم تنتطق عن تفضل " إلا أنها ليست كسابقتها ؛ إذ خرجت مخرج الفعلية المنفية ب " لم " الداخلة على الفعل المضارع من الانتطاق خاصة ؛ وذلك للمبالغة في الدلالة على أنها لم تتكلف – في مرة – شد النطاق على وسطها لتعمل في الزمان الماضي وليس من شأنها أن تتكلفه في الزمان الحاضر أو المستقبل، وهذا من فرط تنعمها، وشدة ترفها.

ومن قول عبيد :

أَرضٌ تَوارَثها شُعوبُ   وَكُلُّ مَن حَلَّها مَحروبُ
إِمّا قَتيلٌ وَإِمّا هالِكٌ   وَالشَيبُ شَينٌ لِمَن يَشيبُ

وقول الحارث بن حلزة :

إنَّ عَمْرًا لنا لديْهِ خلالٌ   غيرَ شكٍ في كُلِّهِنَّ البــــلاءُ
مَلِكٌ مُقسِطٌ وَأَكمَلُ مَن يَمـ   شي وَمِن دونَ ما لَدَيهِ الثَناءُ (١)

وقوله – أيضا – :

ثُمَّ حُجراً أَعني اِبنَ أُمِّ قَطَامٍ   وَلَهُ فَارِسِيَّةٌ خَضراءُ
أَسَدٌ في اللِقاءَ وَردٌ هَموسٌ   وَرَبيعٌ إِن شَنَّعَت غَبراءُ

فإنك تجد الجملة التعليلية في قول عبيد " إما قتيل وإما هالك " قد خلت من وسائل التوكيد، ولم يتقدمها ما يقتضيه من طلب أو ما يشبهه ؛ لأن مضمونها ثابت لا ينكر، ومعناها ظاهر لا يجهل، فكل من حل الأرض وسكنها مسلوب ؛ إما بالقتل، وإما بالموت والهلاك، ولا ثالث لهما، وذلك على الوجه الذي سبق تفصيله وتحليله سلفا .

وتجد الأمر ذاته في قول الحارث : " ملك مقسط وأكمل ....." الذي وقع جوابا عما أثاره قوله في البيت السابق في شأن الملك عمرو بن هند : إن عمرا لنا لديه خلال ...." قد خلا هو الآخر من جميع المؤكدات ؛ لأنه – من وجه – في مقام المدح أبلغ، وبه ألصق وأوفق ؛ لدلالته – أولا – على ظهور سلطان عمرو بن هند، ورسوخ قدمه في الملك .

ولدلالته – ثانيا – على ذيوع صيته، واشتهار حكمه، واتساع رقعة ملكه، ومعرفة القاصي والداني به .

ولأنه – من وجه آخر – أقوى في مجابهة عمرو بن كلثوم، وأدخل في إلقاء الخوف والفزع في روعه، وبث الخوف والهلع في قلبه ؛ لدلالته على طول باع عمرو بن هند، وامتداد سطوته، ونفاذ أمره .

---

(١) ديوان الحارث بن حلزة اليشكري ص٧٢ .

ولك أن تنظر – ثانيا – فيما خرج من ذلك مخرج الفعلية، كقول طرفة :

وأيأسني من كل خير طلبته كأنا وضعناه إلى رمس ملحد

على غير ذنب قلته غير أنني نشدت فلم أغفل حمولة معبد

وقول عمرو بن كلثوم :

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا .

وقول عنترة :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

وقول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

وكذلك قول النابغة :

أضحت خلاء وأضحى أهلها ارتحلوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد

وقول لبيد :

وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أعلامها

أدعو بهن لعاقر أو مطفل بذلت لجيران الجميع لحومها

ليتراءى لك بعد تأمل أن الجملة التعليلية في الأبيات السابقة، وهي في ترتيب الذكر على النحو الآتي : " على غير ذنب قلته .... – نطاعن دونه حتى يبينا – ليس الكريم على القنا بمحرم – من تصب تمته ......– أخنى عليها الذي أخنى على لبد – أدعو بهن لعاقر أو مطفل " قد خرجت مخرج الفعلية الخالية من جميع المؤكدات ؛ وذلك للنكتة التي سبق أن قررها البحث في الجملة الاسمية التي جرت على هذا النهج في عدم التوكيد .

وتأكيد هذا – أولا – من قرينة السياق ؛ إذ لم يتقدمها في الجملة المعلة طلب أو ما يشبهه، يتنزل المخاطب معه منزلة السائل الطالب ما يزيل شكه وتردده، أو يدفع جحده وإنكاره .

ومن وجه آخر : فقد خلت الجملة المعلة – أيضا – في جل المواضع السابقة من المؤكدات، وراجعها – إن شئت فيما تقدم من أبيات – مرتبة على سمت ترتيبها في الذكر أولا : " وأيأسني من كل خير طلبته – ورثنا المجد قد علمت معد – فشككت بالرمح الأصم ثيابه – رأيت المنايا خبط عشواء – أضحت خلاء وأضحى أهلها ارتحلوا – وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغالق .... "، فأجريت العلة على هذا النحو الخالي من المؤكدات لتحقيق نوع من التماثل بين العلة والمعل في البناء والتركيب ؛ طردا للنسق على وتيرة واحدة .

وتأكيده – ثانيا – من مقتضى المقام، وخصوصية الموقف ؛ فالمقام في أبيات لبيد مقام افتخار واعتداد بما كان يتحلى به من طيب الشمائل وجميل الخلال، وفي ذروتها الجود والكرم، وكأن لبيدا يشير بصياغة العبارة على هذا النحو المرسل الخالي من المؤكدات : " أدعو بهن لعاقر

أو مطفل ....." إلى أن جوده وكرمه قد صار ظاهرا معلوما للقاصي والداني، فلا يعتريه شك، ولا تحوم حوله ريبة، ولا يدفعه دافع .

وقد آثر الشاعر في صدر العلة الفعل المضارع " أدعو " الموضوع موضع الماضي ؛ بقرينة قوله قبله " دعوت لحتفها ..."، والذي يعد أكثر ملائمة لمقام الفخر ؛ لأنه يعمل – أولا – على تصوير هذه الدعوة واستحضارها، وإبرازها في صورة شاخصة وماثلة أمام العيان، حتى كأنك ترى وتشاهد .

ويدل – ثانيا – على أن هذه الدعوة هي ديدنه الذي لا ينفك عنه مرة بعد مرة، وحالا بعد حال، كلما دعت موجباتها، وكلما أعد جزورا وهيأها للمقامرة عليها، وكانت عندهم من أنفس المال وأثمنه .

والمقام في بيت عنترة مقام فخر – أيضا – واعتزاز بالذات والإنجاز، واعتداد بالشدة والبأس، والقوة والشجاعة في مواجهة الخصوم، وهو يقتضي سوق العبارة على هذا النحو المرسل الخالي من المؤكدات: " ليس الكريم على القنا بمحرم " ؛ لدلالته – من وجه – على فرط ثقته بنفسه، وإدلائه بقوته وشجاعته، وعدم اعتداده بقوة عدوه، وندائه – من وجه آخر – على تهافت خصمه، وهوان أمره، وحقارة شأنه .

وقرينة هذا من تعانق مؤدي الاستعارة التهكمية في لفظة " الكريم " مع مؤدي حرف الاستعلاء في قوله : " على القنا " في الدلالة على الاستخفاف بالخصم، والسخرية منه – على تصوير المقام وتقريره، ولو أكد العبارة لم تؤد هذا المؤدى، ولم تفد هذه اللطائف .

ومن وجه ثالث فقد حقق إيثار الفعل " ليس " في صدر العبارة – بسمته في الجمود وعدم التصرف – نوعا من التوافق والانسجام مع صيرورة العبارة حكمة أو مثلا يخلد في سمع الزمان وبصره، ولا يتأتى – بحال – التبديل في عبارته، أو التغيير في طريقة بنائه وتركيبه، أو العبث بمضمونه، ويكون الشاعر هو أول من سطره وسجله ؛ للدلالة على اشتهار أمره، وذيوع صيته وخبره، وعظيم إنجازه.

وعلى هذا النهج – أيضا – يجري المقام في بيت عمرو : " نطاعن دونه حتى يبينا "، إلا أن عمرا أخرج العلة مخرج الفعلية ذات الفعل المضارع خاصة " نطاعن " الذي ينبئ في هذا المقام عن أنهم لا يفترون عن الدفاع عن هذا المجد التليد، ولا يملون المطاعنة دونه، وأن هذه عادتهم وسجيتهم التي لا يتخلفون عنها مرة بعد مرة، وحالا بعد حال ؛ لتتعانق صيغة الحاضر والمستقبل في الجملة التعليلية : " نطاعن " مع صيغة الماضي في الجملة المعلة : " ورثنا – قد علمت " على إثبات أهلية عمرو وقومه لوراثة المجد، وتأكيد استحقاقهم له عن جدارة، وتكشف – في الوقت ذاته – عن سبب بقائه فيهم خلفا بعد سلف .

وقد كان لإيثار صيغة المضارع في العلة المذكورة من مادة المفاعلة خاصة "نطاعن " دور بارز في تصعيد نبرة الفخر، والترقي بمشاعر الزهو والامتلاء؛ إذ تصور مدى الجهد والعناء الذي يبذله القوم في الدفاع عن هذا المجد، وتعكس شدة الصبر والمصابرة في المحافظة عليه، فثمت

من ينازع الشاعر وقومه ويغالبهم على وراثة المجد، وحينئذ يكون الاحتكام إلى القوة لحسم هذا النزاع أمرا بديهيًا.

وهذا ما أراد الشاعر إقراره من خلال صنعة الصورة الفنية المتميزة التي تحقق له الغاية من تأكيد تفوقهم، واقتدارهم على تحقيق المنعة لمقومات مجدهم وشرفهم(١).

كما كان لإيثار " حتى " الغائية في قوله : " حتى يبينا " الدور نفسه في الضرب على أوتار هذا المعنى، والشد على معاقده ؛ إذ تشير إلى استمرارية المطاعنة، والاستماتة دونها من أجل بلوغ الغاية التي تتمثل في الإبانة التي لا تجحد، والظهور الذي لا يحجب.

والمقام في قول النابغة : " أخنى عليها الذي أخنى على لبد " يعكف على تصوير حتمية الموت والفناء، وانتفاء الخلود، ويقرر إفساد الدهر لكل ما يأتي عليه، سواء أكان معمرا أم غير معمر ؛ جمادا أم متحركا، وهذا مما لا ينازع فيه بحال، ولا يجادل في صحته في وقت، ولا يمارى في شدة ظهوره ووضوحه، فالناموس الذي يحكم حركة الكون مطرد، والحقيقة المضمنة ثابتة ومسلم بها .

وتأكيد هذا من قرينة السياق، حيث آثر الشاعر في الجملة المعللة استخدام الفعل " أضحى " مكررا، ومسندا مرة إلى الدار، " أضحت خلاء "، ومرة أخرى إلى أهلها " وأضحى أهلها ارتحلوا "، وهو يدور حول معنى الوضوح والجلاء، والوضاءة والانكشاف، وهكذا بدا الأمر، وانكشفت الحقيقة، وطابقت الواقع على نحو جلي(٢).

كما آثر صيغة الماضي في الفعل " أخنى " – بمعنى أفسد – مكررا في الجملة التعليلية، وصيغة الماضي تنبئ عن تحقق الحدث وحصوله على وجه التمام؛ فإفساد الدهر لما يأتي عليه من أمر محقق وواقع، قد تم فيما مضى من الزمان.

ثم إن كون المسند إليه – وهو الفاعل – اسما موصولا معرفا بمضمون الصلة: " الذي أخنى على لبد " مقصود إليه لزيادة تقرير نسبة الإخناء إلى الدهر وتوكيدها ؛ لتتعانق كل هذه الوسائل على تصوير سطوة الدهر، وتجسيد شدة بطشه وإتيانه على الأحياء والجمادات على حد سواء .

وخلو قول طرفة : " على غير ذنب قلته " الذي وقع علة على طريقة الجواب على سؤال أثاره قوله : " وأيأسني من كل خير طلبته "، أو أثاره قوله: "كما لامني في الحي قرط بن أعبد " من جميع المؤكدات هو الأبلغ في مقام لوم ابن عمه وتعنيفه ؛ لحرمانه إياه من كل خير، وإياسه من كل رفد وعطاء، وهو الأقوى في نفي التهمة عن نفسه ؛ الأظهر في إبراء ساحته من أن يكون سبب هذا المنع هو ارتكاب الشاعر في حق ابن عمه ذنبا، أو اقترافه جرما ؛ لدلالته على ظهور براءته، وندائه على خلو ساحته مما اتهم به، حتى صار الأمر ظاهرا معلوما، وبمنأى عن الشبهة، وبمعزل عن الشك والريبة .

---

(١) ينظر كلاسيكيات الشعر العربي ، المعلقات العشر . د/ صلاح رزق ٢٦٦/٢ .

(٢) ينظر المرجع السابق ٥٥٢/١ .

وإشعاره – من وجه آخر – بفرط ثقته بنفسه، وشدة إدلائه بقوة موقفه، وظهور حجته، وسطوع برهانه

وإنما حذف عامل المجرور : " على غير ذنب " ؛ إذ التقدير : لامني على غير ذنب، أو أيأسني على غير ذنب(١)؛ تعجيلا بنفي التهمة عن نفسه، وإسراعا إلى تخلية ساحته مما قد يدور بخلد السامع مما قد يتمتم به وجدانه من أن حرمان ابن عمه إياه كان لجريرة اقترفها، أو لذنب وقع فيه .

وهكذا الشأن في قول زهير : " من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم " الذي وقع علة لما أثاره قوله : " رأيت المنايا خبط عشواء " في أنفس المستمعين من تساؤل حول منشأ هذا الحكم الغريب(٢)، وقد خلا هو الآخر من جميع المؤكدات، وما وراء ذلك من إيحاء بأن مضمونه من الحقائق الثابتة، والمسلمات الراسخة التي لا تحوم حولها شبهة، ولا يعتريها شك أو تردد .

على أن من أمارات العبقرية في هذه العلة أن الشاعر قد أخرجها مخرج المقابلة بين جملتين فعليتين واقعتين في الشرط والجزاء، وذواتي فعل مضارع خاصة: " من تصب تمته – ومن تخطئ يعمر فيهرم "، وذلك علي خلاف مقتضى الظاهر ؛ بقرينة إيثار صيغة الماضي في الجملة المعلة: " رأيت المنايا خبط عشواء "، وذلك – من وجه – للمبالغة في تصوير سوء الحال، واستحضار قبح المآل .

والدلالة – من وجه آخر – على تعاور هذين الحالين المصورين في الجملتين المتقابلتين الأحياء مرة بعد مرة، وتعلقهما بالمعمرين حالا بعد حال – تكرار الموت، واستمرار نزوله بالأحياء وقتا بعد وقت ؛ لتجدد الإصابة وحدوثها مرة بعد مرة، وحدوث التغير المترتب عليه الهرم، وتجدده باعتبار تعلقه بالمعمرين مرة بعد مرة ؛ لتجدد عدم الإصابة وحدوثها مرة بعد أخرى – أيضا – بحسب توفر دواعي كل منهما، وتحقق موجباته ؛ لتتعانق كل هذه الدلالات المنبثقة عن الجملتين الشرطيتين – إلى جانب ما وراء اقتران الجواب بالشرط والتصاقه به في كل منهما من إيحاء بتلبس الموت بالإصابة، والتعمير المترتب عليه الهرم بالخطأ، وحصولهما في لحظة زمنية واحدة – على تشخيص الواقع وتجسيده، وتمثيله وتصويره .

وقد تخلو الجملة التعليلية من المؤكدات وهي واقعة في إثر الطلب، وذلك على خلاف مقتضى الظاهر في هذا الشأن ؛ ليغاير هذا النمط النمط السابق في دلالته ومؤداه، كأن المتكلم لم يعبأ بأمر مخاطبه شيئا، ولم يعره اهتماما، ولم يلتفت إلى تردده وشكه، أو رفضه وإنكاره الذي أشعر به الطلب السابق، إنما نزله منزلة المذعن للأمر، المستسلم لمضمون الخبر، الخالي الذهن

(١) ينظر شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص١٣٢ .

(٢) لأنه أراد أنها تأتي من غير قصد، وليس كما قال؛ إذ تأتي بقضاء وقدر. ينظر شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص١٨٢.

من تصور الحكم، أو التردد فيه، أو إنكاره ؛ وذلك من شدة وضوح الأمر وغاية ظهوره، وأنه مما لا ينبغي أن تحوم حوله شبهة، أو يخالجه شك أو تردد .

وهنا تشوب الجملة التعليلية وتختلط بها معاني الزجر والتوبيخ، واللوم والتأنيب والتعنيف؛ لعدم تنزل المخاطب على مقتضى ظاهر الحال، وموجب العلم.

وهنا – أيضا – نجد من خصائص بناء الجملة التعليلية خروجها مخرج الفعلية خاصة، وذات الفعل المضارع غالبا، والماضي نادرا .

وإن شئت بيانا لذلك فلك أن تراجع قول عنترة :

هَلّا سَأَلتِ الخَيلَ يا اِبنَةَ مالِكٍ إِن كُنتِ جاهِلَةً بِما لَم تَعلَمي

فإن الشطرة الثانية من البيت نزلت منزلة الجواب عن سؤال أثاره الطلب السابق في الشطرة الأولى : " هلا سألت الخيل "، وقد خلت هذه العلة من جميع المؤكدات، مع تقدم الطلب – الذي ينبئ عن أن المخاطب في حكم السائل الطالب –عليها، وهو ما يقتضي توكيد الكلام استحسانا، لكن عنترة أخرج من يخاطبه مخرج خالي الذهن ؛ تعريضا بلومه وتوبيخه، وزجره وتعنيفه، كأن الجهل به، أو بصفاته وشمائله مما لا ينبغي أن يكون من أصله ؛ لشهرته وذيوعه، ومعرفة القاصي والداني بشدة بأسه، وفرط شجاعته، وقرينة هذا من نسبة العلم إلى المخاطبة مثبتا في قوله سلفا : " وكما علمت شمائلي وتكرمي " وقوله : " أثني علي بما علمت فإنني " الذي يحيل المخاطبة[١] إلى رصيد معروف لدى الآخر، لا يمكن جحده أو إنكاره، أو التهوين من شأنه.

ومن استخدام أداة الشرط " إن " في الجملة التعليلية، وكون شرطها هو الفعل الماضي من الكون خاصة، وكأنما الشاعر بذلك يقطع على من يخاطبه كل سبيل للجحود والإنكار، وينتزع شهادته بفضله ومكانته، وإقراره بحقه فيما ينشده من آفاق سامية لحياة حقه، هو جدير بها .

ولك أن تراجع قول عبيد :

قد يوصل النازح النائي وقد يقطع ذو السهمة القريب

الذي وقع علة لما أثاره الطلب السابق في قوله :

ساعد بأرض إذا كنت بها ولا تقل إني غريب

في أنفس المستمعين من تساؤل، وقد خلت هذه العلة من جميع المؤكدات ؛ للدلالة على أن هذا التساؤل الذي تردد في أنفس المتلقين ؛ بسبب تقدم الأمر والنهي السابقين لا اعتبار له، ولا ينبغي أن يلتفت إليه ؛ لأن الحقيقة شاخصة وماثلة، والأمر في غاية الظهور والانكشاف، ولا يتطلب أكثر من مجرد الإخبار به ؛ فإحسان الناس إلى النائي البعيد، وعقهم ذا قرابتهم مما يشهد به الواقع، وتعضده أحداث التاريخ ومواقفه كثيرا .

(١) قيل: المخاطب بذلك هو محبوبته عبلة ، وقيل : هو القبيلة كلها ، ينظر كلاسيكيات الشعر العربي : المعلقات العشر ، د/ صلاح رزق ٢/ ٤١٣ .

وقد كان لإيثار صيغة المضارع المبنية للمفعول في الجملتين المتعاطفتين على وجه المقابلة، واللتين وقعتا موقع العلة : " قد يوصل – وقد يقطع "، وما وراء ذلك من دلالة على اطراد الموقف الذي يشهد به الواقع، وتكرره مرة بعد مرة، وحالا بعد حال – دور كبير في تعظيم المفارقة بين هاتين الجملتين المتقابلتين في شطري البيت، وإبراز البون الشاسع بينهما ؛ لتتضافر كل هذه الوسائل إلى تأكيد صحة الرؤية السابقة التي حوتها الجملة المعلة : : " ساعد بأرض إذا ...."، وترسيخ اليقين بوجوب اتخاذ المشاركة الفعالة، والإيجابية الدائمة المثمرة موقفا إنسانيا جديرا بأن يكون قيمة حيوية، ومثلا حيا تبذل الحياة رخيصة من أجله .

وهكذا يجري الأمر – أيضا – في قول عمرو بن كلثوم :

قفي قبل التفرق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

وقوله– أيضا–:

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا .

فإن خلو الجملة التعليلية فيهما من جميع المؤكدات : " نخبرك اليقين وتخبرينا– نخبرك اليقينا " لمما يصور الثقة المفرطة، ويجسد العزة والشموخ، والأنفة والإباء، ويعكس الاطمئنان الزائد إلى جوهر القضية وحقيقتها، وأنه مما لا ينبغي أن تحوم حوله شبهة ؛ أو تتلبس به ريبة ؛ لشدة ظهور الأمر ووضوحه، وشهرته وذيوعه .

وقد كان لإيثار صيغة المضارع في الموضعين المذكورين – بعد صيغة الطلب في الجملة المعلة : قفي – أنظرنا " دور كبير في تعميق هذه الثقة – أيضا – وترسيخها، وتحقيق هذا الاطمئنان وتقريره ؛ لدلالتها على أن الشاعر قد تلبس بالإخبار، وشرع فيه، وهذا من شدة اهتمامه بالأمر، وفرط اعتنائه بحصوله .

" الخاتمة "

وإلى هنا، وبعد هذه الرحلة الوارفة التي وقف البحث فيها مع خصائص بناء الجملة التعليلية في شعر المعلقات دراسة وتأملا، وتفصيلا وتحليلا نحط رحالنا عند الخاتمة ؛ لنجني فيها بعض ثمرات هذا البحث، ونرصد أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة عبر رحلته الطويلة، والتي يمكن إجمالها على النحو الآتي:

أولا : كثرة خصائص بناء الجملة التعليلية في شعر المعلقات، وتنوعها تنوعا ظاهرا، ومنشأ ذلك ومقتضاه من كثرة وسائل التعليل، وتنوع أساليبه، وكذلك من تنوع الجملة التعليلية نفسها، وذلك على النحو الذي وسعته محاور البحث تفصيلا وتحليلا، وتأملا واستنباطا، وهذا ما أضفى على الجملة التعليلية ثراء واسعا في الدلالة، وعمقا في الإيحاء، وتنوعا في الأسرار والنكات .

ثانيا : يعد التعليل من أقوى وسائل تقرير المعنى وتوكيده، وتثبيته وتمكينه ؛ إذ هو كالدليل على صحة الحكم المعل، والبرهان على صدقه، واستقامته في العقل والمنطق .

ثالثا : خروج التعليل في مبناه – غالبا – مخرج الخبر دون الإنشاء هو من أبرز خصائص بناء الجملة التعليلية في شعر المعلقات ؛ ومرد ذلك إلى التوافق بين الأسلوب الخبري والأسلوب التعليلي في كثير من السمات والخصائص ؛ إذ يتسم كل منهما بالطابع التقريري الذي يقوم على الإقناع والتأثير، ويتميز بهدوء النبرة، ورحابة الانفعال، إلى غير ذلك من الأسباب التي كشف البحث عنها أثناء الدراسة .

رابعا : يعد الفصل – في الغالب – بين الجملة المعلل بها وبين الجملة المعلة لشبه كمال الاتصال من أبرز الخصائص البنائية للجملة التعليلية في شعر المعلقات – أيضا – ؛ لتنزلها منها منزلة الجواب من السؤال ؛ إذ لا يعطف الجواب على السؤال، إلا أن دخول أدوات التعليل فيها جعلها نصا صريحا في العلية والسببية .

خامسا : التوافق التام والانسجام الكامل بين الجملة التعليلية في موقعها وطريقة بنائها وبين المقام الذي جاءت فيه، والحال التي صورتها، وسيقت لأجلها، وذلك على نحو يعكس تفرد لغة المعلقات، وتميز أسلوبها، وعبقرية شعرائها، وأنها جديرة بالمكانة التي تبوأتها، ولائقة بالمنزلة التي وصلت إليها .

سادسا : يتخذ شعراء المعلقات من التعليل وسيلة قوية لتماسك بناء النص الشعري، وإحكام بنيته الفنية، وتوثيق عراه ؛ إذ يربط الكلام بعضه ببعض ؛ خارجيا عن طريق بعض أدوات التعليل، وداخليا عن طريق تلك الحركة الداخلية التي تثيرها الجملة المعلولة في نفس المتلقي، حتى كأن العلة والمعلول قد أفرغا إفراغا واحدا، وخرجا مخرجا واحدا، وهذا من شأنه أن يقرر المعنى في النفس، ويمكنه في القلب .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، وصلي الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

" ثبت المصادر والمراجع "

١-الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق : د/ مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م، دار ابن كثير، دمشق – بيروت .
٢- الإحكام في شرح أصول الأحكام لابن حزم، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ .
٣- أساس البلاغة للعلامة الزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود، ط: الأولى ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت .
٤- أسلوب التعليل في اللغة العربية، رسالة ماجستير للباحث : أحمد خضير عباس، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية ١٩٩٩م .
٥- الأشباه والنظائر للسيوطي، ط: الأولى ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت .
٦- الأصول . دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، د/ تمام حسان، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٨م .
٧- الأصول لابن السراج، تحقيق : د/ عبد الحسين الفتلي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، بدون تاريخ.
٨- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للعصام، ت : د/ عبد الحميد هنداوي، ط: الأولى ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت .
٩- إعجاز القرآن للباقلاني، تعليق : د/ محمد عبد المنعم خفاجي، ط: الأولى ١٩٩١م، دار الجيل، بيروت .
١٠- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.
١١- بدائع الفوائد لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.
١٢- البرهان في علوم القرآن للزركشي، ط : الأولى ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر .
١٣- التطور النحوي للغة العربية لبراجشتراسر، مطبعة السماح ١٩٢٩م.
١٤- التعليل في القرآن الكريم دراسة وتفسيرا، د/ محمد سالم محمد، ط: الأولى ١٩٩٥م، مطبوعات أولاد عتمان، مصر .
١٥- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن الخطاب القرشي، ت: محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر، بدون تاريخ .
١٦- جمهرة اللغة لابن دريد، ت : رمزي منير بعلبكي، ط : الأولى ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت .
١٧- الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، ت : د/ فخر الدين قباوة- أ : أحمد نديم فاضل، ط : الأولى ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية، بيروت .
١٨- حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، بدون تاريخ .

١٩- حاشية الملوي على شرح المكودي على ألفية ابن مالك، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٥٤م .
٢٠- خزانة الأدب ولب لسان العرب للبغدادي، ت : عبد السلام محمد هارون، ط : الرابعة ١٩٩٧م، مكتبة الخانجي، القاهرة .
٢١- دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل، والتقديم والتأخير . د/ عبد الهادي العدل ؛ دار الفكر الحديث ١٩٥٠م .
٢٢- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: محمود محمد شاكر، ط : الثالثة ١٩٩٢م، مطبعة المدني- القاهرة - دار المدني، جدة.
٢٣- ديوان الأعشى ميمون بن قيس، ت: محمد حسين، مكتبة الآداب ٢٠١٢م .
٢٤- ديوان امرئ القيس، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ .
٢٥- ديوان الحارث بن حلزة اليشكري، صنعه : مروان العطية، ط : الأولى ١٩٩٤م،دار الإمام النووي، دمشق .
٢٦- ديوان زهير بن أبي سلمى، ت: علي حسن فاعور، الأولى ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت .
٢٧- ديوان طرفة بن العبد، ت: محمد مهدي ناصر الدين، ط: الثانية ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية، بيروت .
٢٨- ديوان عبيد بن الأبرص، شرح : أشرف أحمد عدرة، ط: الأولى ١٩٩٤م، دار الكتاب العربي، بيروت
٢٩- ديوان عنترة بن شداد، ت: حمدو طماس، ط : الأولى٢٠٠٢م، دار المعرفة، بيروت .
٣٠- ديوان لبيد بن ربيعة، ت: حمدو طماس، ط: الأولى ٢٠٠٤م، دار المعرفة، بيروت .
٣١- ديوان النابغة الذبياني، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الرابعة ٢٠١٧م، دار المعارف، مصر .
٣٢- سبل الاستنباط من الكتاب والسنة، دراسة منهجية تأويلية ناقدة، د/ محمود توفيق، ط: الأولى ٢٠١١م، مكتبة وهبة، القاهرة .
٣٣- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهري . دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي، مصر، بدون تاريخ .
٣٤- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى للإمام ثعلب . ط: الرابعة ٢٠١٥م، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة .
٣٥- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري، ت: عبد السلام محمد هارون، ط: السابعة ٢٠١٧م، دار المعارف، مصر .
٣٦- شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي، ت: الإمام : محمد الخضر حسين، ط : الأولى ٢٠١٣م، دار الصديق للعلوم، دمشق .
٣٧- شرح المعلقات السبع للزوزني، ت: محمد إبراهيم سليم، دار الطلائع ٢٠١٤م .

٣٨- شرح المفصل لابن يعيش، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ .

٣٩- شرح الكافية في النحو للرضى، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ .

٤٠- الطراز المتضمن لعلوم أسرار البلاغة وحقائق الإعجاز للعلوي اليمني، ت: محمد عبد السلام شاهين، ط: الأولى ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت .

٤١- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، ط: الأولى ١٤٠٤هجرية، دار الكتب العلمية، بيروت .

٤٢- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط: الخامسة ١٩٨١م، دار الجيل، بيروت .

٤٣- فروق التقديم والتأخير عند عبد القاهر : د/ أحمد السيد طلحة، بدون تاريخ .

٤٤- الفلسفة نشأة وتطور .تأليف : محمد بدر الدين الصادي، ط: الرابعة ١٩٧٣م، دار الفكر، بيروت .

٤٥- في البلاغة القرآنية . أسرار الفصل والوصل . د/ صباح عبيد دراز، ط: الأولى ١٩٨٦م، مطبعة الأمانة، القاهرة .

٤٦- الكتاب لسيبويه، ت: عبد السلام محمد هارون، ط: الثالثة ١٩٨٨م، مكتبة الخانجي، القاهرة .

٤٧- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، ط: الثالثة ١٩٨٧م، دار الريان للتراث، القاهرة.

٤٨- كلاسيكيات الشعر العربي . المعلقات العشر . دراسة في التشكيل والتأويل. د/ صلاح رزق، ط: الأولى ٢٠٠٩م، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة .

٤٩-الكليات : معجم في الفروق والمصطلحات اللغوية للكفوى، ت: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ.

٥٠- اللباب في علل البناء والإعراب لأبي البقاء العكبري، ت: محمد غازي، ط: الأولى ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية، بيروت .

٥١- لسان العرب لجمال الدين بن منظور، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ .

٥٢- اللغة العربية معناها ومبناها .د/ تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣م .

٥٣- المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية .د/ عبد المجيد عابدين، مطبعة الشبكشي بالأزهر، القاهرة ١٩٥١م .

٥٤- المطول لسعد الدين التفتازاني، ت: عبد الحميد هنداوي، ط: الأولى ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت .

٥٥- معاني القرآن للفراء، ت: أحمد يوسف النجاتي – محمد علي النجار، ط: الأولى، دار المصرية للتأليف والترجمة، بدون تاريخ .

٥٦- معاني النحو . د/ فاضل صالح السامرائي، ط: الأولى ٢٠٠٠م، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، الأردن .
٥٧- معجم الأدباء : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي، ت: إحسان عباس، ط: الأولى ١٩٩٣م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
٥٨- معيار العلم لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، ت: د/ سليمان دنيا، دار المعارف، مصر ١٩٦١م .
٥٩- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المصري، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٩٨٧م .
٦٠- مقاييس اللغة لابن فارس، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٩٧٩م .
٦١- المقتضب في النحو للمبرد، ت: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة ١٣٨٦هجرية .
٦٢- مقدمة ابن خلدون في علم الاجتماع، ت: د/ على عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ٢٠٠٦م .
٦٣- نظرات في أسلوب الإنشاء والقصر، د/ محمد إبراهيم عبد العزيز شادي، ط : ١٩٩١م .
٦٤- نفائس الأصول في شرح الوصول للقرافي، ت: عادل أحمد عبد الموجود، ط: الأولى ١٩٩٥م .
٦٥- همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي، ت: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر، بدون تاريخ .

ثبت الموضوعات

خصائص بناء الجملة التعليلية في شعر المعلقات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١٧١٥
التمهيد	١٧١٧
المحور الأول: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل باللام.	١٧٢١
المحور الثاني: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالفاء.	١٧٣٦
المحور الثالث: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بـ"إذ".	١٧٥١
المحور الرابع: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بـ"كي".	١٧٥٥
المحور الخامس: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالمصدر المنصوب.	١٧٥٧
المحور السادس: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالواو.	١٧٦٤
المحور السابع: خصائص بناء الجملة التي خرجت مخرج التعليل بالاستفهام	١٧٧١
المحور الثامن: خصائص بناء الجملة التعليلية التي خرجت مخرج الجواب عن سؤال مقدر.	١٧٧٩
الخاتمة	١٧٩٨
ثبت المصادر والمراجع	١٧٩٩
ثبت الموضوعات	١٨٠٣